ﷺ تقول للنبى ﷺ : اني لأدل عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تدل بهنّ . إنّ جدى وجدّك واحد . وإنّى أنكحنيك الله من السّماء . وإنّ السّفير لجبرائيل عليه السّلام[1] .

وقد بينت الآية الكريمة حكمة الله تعالى فى تزويجه جلّ وعلا رسوله الكريم من زينب مطلقة متبناه زيد . ﴿ **لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا** ﴾ ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تستعمل لفظة المؤمنين فى حقّ الّذين يعنيهم الحديث لكيلا يكون على المؤمنين حرج فلا زلنا ندور فى فلك المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات . إنّ من شروط الإيمان أن يمتثل المؤمن لأوامر الله تعالى، ومن ذلك ألاّ يجد المؤمن فى نفسه أدنى حرج فى زواجه من مطلقة متبناه. ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تكرر ما سبق أن نصّت عليه من قضاء الوطر ، أى بعد أن يطلق الأدعياء زوجاتهم اللاّتى لم يعد لديهم حاجة من الوصول إلى أعمق أعماق الزّوجة إلاّ وقد بلغوها ، هكذا بصريح اللفظ . وحينما ينصّ السّياق على هذه الأعماق يندرج فيها بطبيعة الحال ما هو دونها . وذلك معمق لرفع أدنى حرج وشعور بالذّنب والإثم تجاه تزوج المتبنى مطلقة متبناه .

وإنّ التذييل : « **وكان أمر الله مفعولا** » معمق لتلك الحكمة الّتى نصت عليها الآية الكريمة . إنّ كلّ الّذى حصل من تبنّى المصطفى ﷺ لزيد بن حارثة بعد عتقه وزواج زيد من زينب وتطليقه إيّاها وزواجه ﷺ منها بعد انقضاء عدّتها ، إنّ كل الّذى حصل إنما هو بإرادة الله تعالى وعلمه ، كى يقضى على عادة العرب البغيضة فى إنزال الدّعى منزلة الابن الحقيقى فى كلّ شىء . وكى يعود الابن الحقيقى كما أراد الله تعالى له غير مزاحم فيما له من حقوق وعليه من واجبات . إنّ أبلغ دليل على كون الدّعى ليس ابنا حقيقيا هو أن يتزوج متبنية زوجته بعد طلاقها منه ، وبذلك يتبين أنّه ليس له أدنى حظ من البنوة الحقيقية . وقد جاء فى المحرّمات من النساء قوله عزّ من قائل[2] « **وحلائل أبنائكم الّذين من أصلابكم** » يقول ابن كثير[3] : « وقوله تعالى : « لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم

---

(١) تفسير الطبرى ١١/٢٢ وتفسير ابن كثير ٤٩٢/٣

(٢) سورة النساء ٢٣

(٣) تفسير ابن كثير ٤٩٢/٣

إذا قضوا منهن وطرا أى إنّما أبحنا لك تزويجها وفعلنا ذلك لئلا يبقى حرج على المؤمنين فى مطلقات الأدعياء ، وذلك أنّ رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد ابن حارثة رضى الله عنه فكان يقال : زيد بن محمّد ، فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى : « **وما جعل أدعياءكم أبناءكم** إلى قوله تعالى : ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله . ثم زاد ذلك بيانا وتأكيدا بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش رضى الله عنها لما طلقها زيد بن حارثة رضى الله عنه ولهذا قال تعالى فى آية التحريم : «**وحلائل أبنائكم الّذين من أصلابكم** » ليتحرز من الابن الدّعى . فإن ذلك كان كثيراً فيهم . وقوله تعالى : **وكان أمر الله مفعولا** . أى وكان هذا الأمر الّذى وقع قد قدره الله تعالى وحتمه وهو كائن لامحالة . كانت زينب رضى الله عنها فى علم الله ستصير من أزواج النبى ﷺ » .

ولعله من المفيد أن نشير إلى بعض المسائل الفقهية المتعلّقة بالآية الكريمة . عن على ابن الحسين أن قوله : أمسك عليك زوجك واتق الله على طريق الأدب والوصية[1] وهو أمر ندب[2]ويقول القرطبى[3] : « أراد نهى تنزيه لا نهى تحريم . لأن الأولى ألاّ يطلق » .

وقد تبين العلماء من قوله تعالى زوّجناكها دليلاً على ثبوت الولى في النكاح[4] قال تعالى : ﴿ **وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى النّاس والله أحق أن تخشاه.فلمّا قضى زيد منها وطرا زوّجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطرا وكان أمر الله مفعولا** ﴾ .

« ولمّا نفى الحرج عن المؤمنين فيما ذكر واندرج الرّسول فيهم ، إذ هو سيّد المؤمنين نفى عنه الحرج بخصوصه ، وذلك على سبيل التكريم والتشريف . ونفى عنه الحرج مرتين إحداهما بالاندراج فى العموم والأخرى بالخصوص «[5] قال تعالى :

---

(١) البحر المحيط ٢٣٤/٧ وانظر القرطبى ٥٢٧٢ وهذا عن على بن الحسين

(٢) البحر المحيط ٢٣٤/٧

(٣) تفسير القرطبى ص ٥٢٧٣

(٤) تفسير القرطبى ص ٥٢٧٧

(٥) البحر المحيط ٢٣٥/٧

﴿ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الّذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا﴾ .

إنّ هذه الآية تبين أنّ النبى ﷺ لا إثم عليه ولا ذنب فيما أحلّ الله له وأمره به[1] وقدر من زواجه ﷺ بعدد من النسوة يزيد على الأربع وفيهن زينب مطلقة متبناه زيد ابن حارثة . إنّه لا مكان مطلقا لأراجيف المنافقين فى تزويج نساء الأبناء والنبى ﷺ معصوم فى حركاته وسكناته[2] إنّ زيدا ليس ابنا له ﷺ أساساً وقد قال تعالى : « **ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له** » . ولا مكان كذلك لاعتراض اليهود بكثرة نكاحه ﷺ وكثرة الأزواج ، فقد رد الله تعالى عليهم بقوله : « **سنة الله فى الّذين خلوا من قبل** » أى تلك هى سنة الله تعالى فى الأنبياء بكثرة النساء[3] أن ينالوا ما أحله لهم. أى سن لمحمّد ﷺ فى التوسعة عليه فى النكاح سنة الأنبياء الماضية كداود وسليمان[4] إنّ « هذا هو حكم الله تعالى فى الأنبياء قبله ، لم يكن ليأمرهم بشىء وعليهم فى ذلك حرج »[5] وقد جاء فى سورة الرّعد[6] قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرّية ﴾.

وانظر إلى إشارة الآية الكريمة إليه ﷺ بأنه النبى : «**ماكان على النبى من حرج**» وما أكثر الإشارات فى السّورة الكريمة إليه بهذه الصفة التى تدلّ على منزلته ﷺ الرّفيعة عند بارئه . كيف لا وهو أشرف الأنبياء والمرسلين . وانظر إلى «مِنْ» فى القول: « مِنْ حرج » الّتى تنفى أقلّ الحرج . يقول الطبرى[7] : « لم يكن لنبيه أن يخشى النّاس فيما أمره به أو أحله له » .

« وانتصب سنة الله على أنّه اسم موضوع موضع المصدر قاله الزّمخشرى أو على المصدر أو على إضمار فعل تقديره الزم أو نحوه . أو على الإغراء كأنّه قال فعليه سنة

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤٩٢/٣

(٢) البحر المحيط ٢٣٤/٧

(٣) انظر البحر المحيط ٢٣٥/٧ وتفسير ابن كثير ٤٩٢/٣

(٤) تفسير القرطبى ص ٥٢٧٧

(٥) تفسير ابن كثير ٤٩٢/٣

(٦) الآية ٣٨

(٧) تفسير الطبرى ١٢/٢٢

الله »[1] .

وتختم الآية الكريمة بالقول : ﴿ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴾ أى وكان أمره الّذى يقدّره كائنا لا محالة ، وواقعا لا محيد عنه ولا معدل . فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن »[2] .

وهذه الآية الكريمة ، إذا كان فيها ردّ على اعتراضات المنافقين واليهود ومن لف لفهم ، ودفاع من ربّ العزّة عنه ﷺ ، من كونه إنّما ضرب المثل الأعلى فى الامتثال لأوامر الله تعالى . فهو بذلك الأسوة الحسنة للمؤمنين وللمؤمنات الّذين امتثلوا أوامر الله تعالى فى كونهم ليس لهم الخيرة من أمرهم إذا قضى الله ورسوله أمرا ، فإنّ الآية الكريمة فى الوقت ذاته تعتبر امتدادا للعتاب الّذى يخيم على جوّ الآيات ، والّذى ابتدأ بعتاب المؤمنين والمؤمنات الّذين تأخر قليلا امتثالهم لأوامر الله تعالى وأوامر رسوله الكريم ﷺ وامتدادا لعتابه ﷺ والّذى ابتدأ بالقول : وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى النّاس والله أحق أن تخشاه . إنّ هذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها إذا كان من معانيها فى مجال العتاب[3] : « لم يكن لنبيه أن يخشى النّاس فيما أمره به أو أحّله له » فإنّ لسان حال الآيات كلّها يقول : أيُّها النبى الكريم ، أمام إيحائى لك بأنك ستتزوّج مطلقة دعيك زيد ، ما كان ينبغى لك أن تخشى أحداً من الخلق ، من المنافقين واليهود أو من سواهم ، لأنهم لايزدادون فى الغىّ إلاّ تماديا . إنّ عليك أن تمتثل لأوامر الله تعالى ، وألاّ تلتفت إلى أى مخلوق . وهذا التوجيه السماوى ، وإن كان موجّهاً أساساً إلى المصطفى ﷺ النبى الأسوة ، فإنّه موجّهٌ فى الوقت ذاته إلى المسلمين جميعاً . إنّ عليهم أن يستمسكوا بالّذى أوحى الله تعالى إلى رسوله الكريم من قرآن كريم وسنة نبوية مطهرة . وإنّ أكبر دليل على تمادى خصوم هذا الدّين فى غيهم وضلالهم هو أنّه رغم تبيين ربّ العزّة فى محكم كتابه حقيقة الأمر بشأن ملابسات زواجه ﷺ من زينب مطلقة دعيه زيد ، فقد أمكن لهؤلاء الخصوم أن يدسوا على المصطفى ﷺ النبى المختار والرّسول الأسوة الحسنة مالا يصح أن يسمع شىء منه عن النبى المعصوم الّذى نعته الله فى محكم كتابه

---

(١) البحر المحيط ٢٣٦/٧

(٢) تفسير ابن كثير ٤٩٢/٣

(٣) تفسير الطبرى ١٢/٢٢

بالخلق العظيم فقال تعالى[1] : « **وإنّك لعلى خلق عظيم** » وبأنّه الأسوة الحسنة إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها . قال تعالى[2] : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾ . وتبدو جراءة هذا الفريق من الضالين المضلين ووقاحتهم أنهم يدسون على المصطفى ﷺ أكاذيبهم الّتى يربطونها ببعض آيات سورة الأحزاب الكريمة الّتى تنصّ على أنّه ﷺ هو الأسوة الحسنة . إنّ هذا درس ينبغى أن يعيه المسلمون لله ربّ العالمين. وقد قال تعالى فى محكم كتابه[3] : ﴿ **فاعتبروا يا أولى الأبصار** ﴾ وقال تعالى[4] :﴿ **ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربّكم والله يختصّ برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ وقال تعالى :﴿ **ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الّذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً** ﴾ .

أما وأنّ فى الآية الكريمة شيئاً من العتاب اللطيف للمصطفى ﷺ ، يكون الحرج الّذى أحس به المصطفى ﷺ لا مكان له مع إيحاء الله تعالى له بأنه سيتزوّج مستقبلا مطلقة زيد متبناه، فإنّ هذا العتاب يستمر كذلك فى الآية الكريمة التّالية ، الّتى تتحدّث عن أولئك الأنبياء والمرسلين السّابقين الّذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله . فلا مكان لخشيته ﷺ أراجيف المنافقين واليهود ، ومن لفّ لفهما من خصوم هذا الدّين . قال تعالى :﴿ **الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلاّ الله وكفى بالله حسيبا** ﴾ .

إنّ اسم الموصول الّذين محله الخفض ردّاً على الّذين فى قوله : سنة الله فى الّذين خلوا[5] فى الآية الكريمة السّابقة العائد على النبيين المرسلين الّذين جاءت الإشارة إليهم إثر الحديث عن أشرفهم وخاتمهم . قال تعالى :﴿ **ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله فى الّذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً** ﴾

---

(١) سورة القلم ٤
(٢) سورة الأحزاب ٢١
(٣) سورة الحشر ٢
(٤) سورة البقرة ١٠٥
(٥) تفسير الطبرى ١٢/٢٢

الّذين يبلغون رسالات الله ﷻ. يقول أبو حيّان[1] : « والّذين صفة للذين خلوا أو مرفوع أو منصوب على إضمار هم أو على أمدح » وقال الزّمخشرى[2] : « الّذين يبلغون يحتمل وجوه الإعراب ، الجرّ على الوصف للأنبياء . والرّفع . والنّصب على المدح على هم الّذين يبلغون . أو على أعنى الّذين يبلغون » .

وانظر إلى جملة « يبلغون » فى الدّلالة على كون رسل الله تعالى والله أعلم حيث يجعل رسالته ، قد بلغوا الرّسالة وأدّوا الأمانة وكانو لأقوامهم النّاصحين الأمناء وعلى رأسهم خاتمهم وأشرفهم محمدّ بن عبد الله ﷺ . ومثل هذا التعبير : « الذين يبلغون رسالات الله» يذكرنا بما جاء خطابا له ﷺ فى سورة المائدة[3] : **﴿ يا أيّها الرّسول بلغ ما أنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من النّاس إنّ الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾**.

وانظر إلى لفظة رسالات فى صيغة الجمع : « الذين يبلغون رسالات الله » ويمكن أن ينظر إلى صيغة الجمع هذه من زاوية المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وكأنّ كلّ واحد منهم يحمل رسالته الّتى أرسله الله تعالى بها ، مع العلم بأنّ جوهر كل الرّسالات واحد . كما أنه يمكن أن ينظر إلى صيغة الجمع هذه من زاوية الرّسول الواحد ، باعتبار أن كلّ مسألة كلف بها هى رسالة من الله تعالى مكلف بإبلاغها . ومن أوضح الأدلة على ذلك أن نوحا عليه السّلام . أوّل رسل الله تعالى إلى الخلق ، جاء على لسانه فى خطابه لقومه لفظه رسالات بصيغة الجمع . جاء فى سورة الأعراف[4] قوله تعالى : **﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنّى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه إنّا لنراك فى ضلال مبين . قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من ربّ العالمين . أبلغكم رسالات ربّى وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون ﴾** ومن هذه النظرة يتضح أنّ كلّ ما بلغ به المصطفى إنّما هو رسالة من الله تعالى . وقد عرفنا أنّ المصطفى ﷺ كان أسرع المبادرين إلى ما يأمره عزّ وجل أن يقوم به من

---

(١) البحر المحيط ٢٣٦/٧

(٢) الكشاف ٥٤١/٢

(٣) الآية ٦٧

(٤) الآيات ٥٩ - ٦٢

قول أو فعل . وإنّما أخفى ﷺ ما أوحى الله تعالى إليه من أمر زواجه من زينب رضى الله عنها ، كما بينا من قبل ، لأن هذا وحى حاص بذاته الشّريفة صلوات الله وسلامه عليه . ثمّ إنّ زواجه ﷺ من زينب أمر واقع لا محالة . وإنّ وقوعه عمليا يعنى إعلانه والعلم به ، كما يعنى ضمنا الامتثال الكامل منه ﷺ لأمر ربه جلّ وعلا . وقد عرفنا الدّافع الّذى جعله ﷺ يخفى فى نفسه ما الله مبديه ، وهو خوفه أراجيف المنافقين الّذين ظلوا يرجفون ، رغم تبيين ربّ العزّة فى محكم كتابه الحكمة من تزويجه جلّ وعلا زينب مطلقة متبناه زيد رضى الله عنه .

إنّ كل رسل الله تعالى إنّما يخشونه وحده جلّ وعلا لا شريك له ، ولا يخشون أحداً سواه . فلا يصحّ لرسول من رسل الله تعالى فضلاً عن خاتمهم وأشرفهم أن يخشى أحداً غير الله تعالى . وقد عرفنا أنّ ثمّة فرقا بين خشية العباد وخشية الله تعالى . إنّ خشية العباد مصدرها خوف جلب الأذى أو طرد النفع . ولا مكان لذلك الخوف من المتوكل على الله تعالى فكيف بأشرف الأنبياء والمرسلين . وإنّ خشية الله تعالى مصدرها الحبّ والإجلال والإكبار والطمع فى العفو والإحسان . إنّ ذلك النوع البسيط من خشية البشر لا ينبغى أن يتسلل إلى قلب واحد من رسل الله تعالى ، فكيف بخاتمهم وأشرفهم . ومع علمنا بمعنى الخشية فى حقّ البشر وعتاب الله تعالى للمصطفى المختار بكونه قد تسرب إلى قلبه ذلك النوع من خشية البشر ، فإنّا نظل قادرين على أن نفهم شيئاً من ذلك العتاب من هذه الآية الكريمة . وتختم الآية الكريمة بهذا التذييل:« وكفى بالله حسيبا »يقول تعالى ذكره : وكفاك يا محمّد بالله حافظا لأعمال خلقه ومحاسبا لهم عليها »[1] وقال الزّمخشرى[2] :« حسيبا كافيا للمخاوف أو محاسبا على الصغيرة والكبيرة . فيجب أن يكون حقّ الخشية من مثله » ، ويقول ابن كثير بشأن إبلاغ المصطفى ﷺ رسالة ربه[3] . وسيّد النّاس فى هذا المقام بل وفى كلّ مقام محمّد رسول الله ﷺ . فإنّه قام بأداء الرّسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب إلى جميع أنواع بنى آدم . وأظهر الله تعالى كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشّرائع . فإنّه قد كان النبى قبله إنّما يبعث إلى قومه

---

(١) تفسير الطبرى ١٢/٢٢

(٢) الكشاف ٥٤١/٢

(٣) تفسير ابن كثير ٤٩٢/٣

خاصة . وأمّا هو ﷺ فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم. قل ياأيُّها النّاس إنى رسول الله إليكم جميعاً . ثمّ وَرِثَ مقام البلاغ عنه أمته من بعده . فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضى الله عنهم . بلغوا عنه كما أمرهم به فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله فى ليله ونهاره وحضره وسفره وسره وعلانيته . فرضى الله عنهم وأرضاهم . ثمّ ورثه كلّ خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا فبنورهم يقتدى المهتدون . وعلى منهجهم يسلك الموفقون . فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم.قال الإمام أحمد ... عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه . فقال : ثمّ لا يقوله . فيقول الله : ما يمنعك أن تقول منه ؟ فيقول ربّ خشيت النّاس فيقول : فأنا أحقّ أن يخشى » قال تعالى : ﴿ **الّذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلاّ الله وكفى بالله حسيباً** ﴾ .

(٤٠) وهذه هى الآية الكريمة الأخيرة فى القسم . قال تعالى: ﴿ **ما كان محمّد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكلّ شيء عليما** ﴾ وواضح علاقة الآية الكريمة بما سبقها من آيات كريمات . فنحن لازلنا بصدد الرّدّ على أراجيف المنافقين ومن لفّ لفّهم وما خشيه المصطفى ﷺ من أكاذيبهم الّتى يتعمدون صياغتها وإذاعتها من كونه ﷺ نهى عن زواج مطلقات الأبناء بينما هو يتزوّج مطلقة ابنه ، مع علمهم اليقينيّ من كون زيد متبنى المصطفى ﷺ وليس ابنه . ولكنهم يريدون أن يثيروا الزوابع فى وجه الإسلام. وإنّ من أنسب اللحظات لإثارة أمثال هذه الزوابع أن يدّسوا الزّعم بكونه ﷺ تزوج مطلقة ابنه . ألم يكن زيد يقال له زيد بن محمّد ؟ أليست الأكثرية تعتقد أنّه ابن محمد بينما الأقلية فقط ، وخاصة قبل نزول القرآن الكريم فى هذا الشّأن هى الّتى تعلم تلك الحقيقة ؟ وما الّذى تستطيع أن تفعله الأقلية تجاه الأكثرية ؟ وهل هؤلاء المنافقون ومن لفّ لفّهم يرقبون فى مؤمن إلاً أو ذمّة ؟ لا . إذن هَلْ ينتظر من القوم شيء من عدل أو إنصاف أو ورع عن الكذب والافتراء ؟ لا ينتظر من القوم شيء من ذلك . أخرج الترمذى عن عائشة قالت : لما تزوج النبى ﷺ زينب . قالوا : تزوّج حليلة ابنه فأنزل الله : « **ما كان محمّد أبا أحد من رجالكم** » الآية[1]

---

(١) لباب النقول ص ١٧٥

وبما أنّ زيدا هذا الذى زعم المغرضون أنّه ابنه ﷺ بينما هو دعيّه ، قد تجاوز الخمسين من عمره[1] آنذاك ، فهو رجلٌ من رجال المسلمين وليس ابنه ﷺ . لذلك فقد نصت الآية الكريمة على هذه الحقيقة : « **ما كان محمّد أبا أحد من رجالكم** » ويلاحظ أن الآية الكريمة أشارت إلى المصطفى ﷺ بصريح الاسم لأنها هى ذاتها قد أثبتت له ﷺ أكثر ممّا أثبتت له الآيات الأخر التى أشارت إلى منزلته الرّفيعة عند بارئه بكونه الرّسول فقط أو النبى فقط . كما يلاحظ أن النبى ﷺ رحمة الله تعالى المهداة ونعمته المسداة ، إذا لم يكن أب شخص واحد من رجال المسلمين آنذاك ، فإنّه بمنزلة الأب الرّوحى لكل المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات . فقد ضرب ﷺ المثل الأعلى فى حنوّه على الإنسانية جمعاء . أليس هو ﷺ الّذى سأل الله تعالى لثقيف الهداية بعد أن آذوه أذى بليغا بأن ردواعليه ردّاً قبيحا ، وسلطوا عليه سفهاءهم وقد ذهب من مكة إلى الطّائف سيراً على الأقدام يدعوهم إلى صراط العزيز الحميد . وبعد أن عرض عليه جبريل إذن الله تعالى لملك الجبال وكان مع جبريل عليهما السّلام فى أن يطبق على أهل الطّائف الأخشبين ؟ إنّ الأبوّة الرّوحية له ﷺ ثابته بشأن كل المؤمنين . وقد قال تعالى[2] : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ وقال تعالى[3] : « **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فإنّ تولّوا فقل حسبى الله لا إله إلاّ هو عليه توكلت وهو ربّ العرش العظيم** ﴾ فالرّسول الكريم إنّما أرسله الله تعالى رحمة للعالمين . وإنّ ربّ العزّة ليخلع على المصطفى ﷺ اسمين من أسمائه الحسنى جلّ وعلا ، لهما علاقتهما الوثيقة بالرّافة والرّحمة.وإنّ الذى نفته الآية الكريمة هو كونه ﷺ أبا حقيقيا لواحد من الرّجال المؤمنين على الإطلاق . سواء كان ذلك الرّجل زيداً متبناه أو غير زيد . إنّ النبى ﷺ ليس أبا لأىّ واحد من رجال المؤمنين . وواضح أنّ النفى لرجال المؤمنين . وواضح كذلك أنّ النفى لرجال المخاطبين « من رجالكم » وبالتالى لا يدخل فى ذلك النفى ذرّيته ﷺ من النّساء ولا يدخل أبناؤه

---

(١) استشهد رضى الله عنه فى غزوة مؤتة وعمره خمس وخمسون سنة الإصابة ٥٦٤/١ وقد تزوّج النبىّ ﷺ زينب سنة خمس وكانت وقعة مؤتة سنة ثمان .

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧

(٣) سورة التوبة ١٢٨ ، ١٢٩

وأحفاده ﷺ . لأنّ أبناءه عليه الصّلاة والسّلام ماتوا صغاراً قبل سن الحلم ، ولأن أحفاده كانوا آنذاك صغاراً فهم ليسوا رجالاً آنذاك ، ثمّ هم مستقبلا رجاله ﷺ . يقول ابن كثير[1] : « فإنه ﷺ لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم . فإنه ﷺ ولد له القاسم والطّيب والطّاهر من خديجة رضى الله عنها فماتوا صغارا .. وولد له ﷺ إبراهيم من مارية القبطية ، فمات أيضاً رضيعا . وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات: زينب ورقيّة وأمّ كلثوم وفاطمة رضى الله عنهن جمعين . فمات فى حياته ﷺ ثلاث . وتأخرت فاطمة رضى الله عنها حتّى أصيبت به ﷺ . ثمّ ماتت بعده لستة أشهر » .

وانظر إلى ما أثبتت الآية الكريمة له ﷺ من نعم الله تعالى عليه ﷺ وعلى العالمين : « **ولكن رسول الله وخاتم النبيين** » لقد تبينا أنّه ﷺ ليس أب أحد من رجال المؤمنين على جهة النّسب . ولكنه بمنزلة الأب الرّوحى لكلّ المؤمنين باعتباره نبيا ورسولا . وما أكثر الآيات القرآنية التى تبين مدى حنوه ﷺ وعطفه على الإنسانية . حتى إنّه ليم على فرط حماسته فى مجال الدّعوة إلى صراط العزيز الحميد . وذلك فى مثل قوله تعالى فى سورة الكهف[2] : ﴿ **فلعلّك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** ﴾ وقوله تعالى فى سورة فاطر[3] : ﴿ **أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإنّ الله يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إنّ الله عليم بما يصنعون** ﴾ وقوله تعالى فى سورة الأنعام[4] : ﴿ **قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتّى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين . وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السّماء فتأتيهم بآية . ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . إنّما يستجيب الّذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثمّ إليه يرجعون** ﴾ وإذا كان المصطفى

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٩٢

(٢) الآية ٦

(٣) الآية ٨

(٤) الآيات ٣٣ - ٣٦

ﷺ يكاد يهلك نفسه حزنا بسبب انصراف القوم عمّا يدعوهم إليه من صراط العزيز الحميد . فكيف هو فرط رحمته للمؤمنين بالله تعالى ربّا وبالقرآن دستورا وبه ﷺ نبيا ورسولا ؟ إنّ رحمته ﷺ بالخلق لا يستطيع أن يصور شيئاً منها قلم ، ونكتفى بالقول إنّه ﷺ أحن على كلّ واحد من المؤمنين من والديه وأحرص على مصلحته منه هو بحرصه على مصلحة نفسه ولهذا كان ﷺ بنص القرآن الكريم أولى بالمؤمنين من أنفسهم وإذا قضى الله تعالى ورسوله أمرا فليس لمؤمن ولامؤمنة الخيرة من أمرهم . إنّما عليهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ، واثقين من أنّ ما قضاه الله تعالى وقضاه رسوله ﷺ هو الخير كلّ الخير . ومن أقرب الأدلة على ذلك هو أننا لازلنا جميعاً نتقلب فى نعيم هذه الآيات الكريمات ونعمها ابتداءً بزينب وزيد رضى الله تعالى عنهما ، الّذين كوفئا على امتثالهما لقضاء الله تعالى وقضاء رسوله ﷺ ، بأن كانت زينب إحدى أمّهات المؤمنين ، وذكر اسم زيد وحده فى القرآن الكريم فأصحب قرآنا يُتْلى . وما الّذى يمكن أن يقول المسلم لله ربّ العالمين عن نعمة الإسلام الّتى يتقلب بها عدد أنفاسه ، أكثر من أن يردّد قوله جلّ وعلا عن هذا الدّين الذى رضيه جلّ وعلا لعباده فى سورة المائدة[1] : **﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾**.

إنّ الآية الكريمة أثبتت للمصطفى ﷺ ثلاثة من مظاهر فضل الله تعالى العظيم عليه . الأوّل هو كونه ﷺ رسول الله والثّانى هو كونه ﷺ نبيا . والثّالث هو كونه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين . وقد عمق هذه النعم الثّلاث قوله تعالى : « **وكان الله بكل شىء عليما** » وهو يشير إلى نعم الله تعالى الّتى لا تحصى على هذا الرّسول الكريم . ومن هذه النعم ما يأخذ بسبب من قوله تعالى[2] : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » فكيف عبرت الآية الكريمة عن هذه النعم الثلاث ؟

فى ضوء معرفة معنى النبى والرّسول . ومعرفة الفرق بين النبى والرّسول وكون لفظة رسول يدخل فيها النبى ويندرج تحتها بالضرورة وليس العكس ، يتبين أنّ الآية الكريمة تثبت له ﷺ من الفضل مالم يصحّ لواحد من رسل الله تعالى عليهم صلوات الله

---

(١) الآية ٣

(٢) سورة الأنعام ١٢٤

وسلامه أجمعين . لأنّ ما خص به ﷺ ، من كونه خاتم النبيين لا يكون إلاّ لنبى واحد أساسا . وهذا النبى هو محمّد ﷺ رسول الله تعالى . فمن هو النبى ومَنْ هو الرّسول وما الفرق بينهما ؟

النبى هو الّذى اصطفاه الله تعالى بالنبوة بأن اختصه الله تعالى عن الأمة بإيحاء الله تعالى إليه وإرساله ملائكته إليه . والرّسول هو الّذى اصطفاه الله تعالى بالرّسالة بأن اختصه الله تعالى عن الأمّة بإيحاء الله تعالى إليه وإرساله ملائكته إليه وإرساله إلى الأمّة يدعوهم إلى الله بشريعته وأمره .

وبذلك يتبين أن الأنبياء والمرسلين يشتركون فى الوحى وفى نزول الملائكة عليهم .

كما يتبين بناءً على ذلك الفرق بين الأنبياء والرّسل . وهو أنّ الأنبياء لم يرسلوا إلى أممهم بينما اختصّت الرّسل عنهم بإرسالهم إلى الأمم[1] بمعنى أن الأنبياء يمارسون هم أنفسهم ما أوحى الله تعالى إليهم كى يشتركوا جميعاً فى ترجمة ذلك الإيحاء إلى ممارسة وعبادة .

وبذلك يتبين أنّ الآية الكريمة حينما تبين أنّ محمّداً ﷺ ما كان أبا أحد من رجال المؤمنين ولكن كان رسول الله ، هى فى إثباتها الرّسالة من الله تعالى له ﷺ ، تثبت له النبوة ضمنا . لأنّ مقام الرّسالة أخصّ من مقام النبوة . فإن كلّ رسول نبى ولا ينعكس[2] ومعروف أنّ أعلى مرتبة يمكن أن يتفضل الله تعالى بها على عبد من عباده هى نعمة الرّسالة . يقول ابن القيم فى طريق الهجرتين وباب السّعادتين فى الفصل الّذى عقده فى مراتب المكلفين فى الدّار الآخرة وطبقاتهم فيها ما يلى[3] : « الطبقة الأولى وهى العليا على الإطلاق ، مرتبة الرّسالة . فأكرم الخلق على الله وأخصّهم بالزّلفى لديه رسله . وهم المصطفون من عباده الّذين سلم عليهم فى العالمين كما قال تعالى[4] : « **وسلام على المرسلين** » وقال تعالى[5] : « **سلام على نوح فى العالمين** » . وقال تعالى[6] : « **سلام على إبراهيم . كذلك نجزى المحسنين** »

---

(١) انظر هنا طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم ص ٤٥٥

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٤٩٣/٣

(٣) طريق الهجرتين ٤٥٣ - ٤٥٥

(٤) سورة الصافات ١٨١

(٥) سورة الصافات ٧٩

(٦) سورة الصافات ١٠٩ ، ١١٠

وقال تعالى[1] : « **سلام على إلياسين** » وقال تعالى[2] : « **قل الحمد الله وسلام على عباده الّذين اصطفى** .... الله سبحانه قد سلم على المصطفين من عباده ، والرّسل أفضلهم . وقد أخبر سبحانه وتعالى أنه أخلصهم بخالصة ذكرى الدّار ، وأنّهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . ويكفى فى فضلهم وشرفهم أنّ الله سبحانه وتعالى اختصهم بوحيه وجعلهم أمناء على رسالته وواسطة بينه وبين عباده ، وخصهم بأنواع كراماته . فمنهم من اتخذه خليلا . ومنهم من كلّمه تكليما . ومنهم من رفعه مكانا عليا على سائرهم درجات . ولم يجعل لعباده وصولاً إليه إلاّ من طريقهم ولا دخولاً إلى جنته إلاّ خلفهم . ولم يكرم أحداً منهم بكرامة إلاّ على أيديهم . فهم أقرب الخلق إليه وسيلة ، وأرفعهم عنده درجة ، وأحبّهم إليه وأكرمهم عليه .

وبالجملة فخير الدّنيا والآخرة إنما ناله العباد على أيديهم وبهم عرف الله . وبهم عبد وأطيع . وبهم حصلت محابه تعالى فى الأرض . وأعلاهم منزلة أولو العزم منهم المذكورون فى قوله تعالى[3] : « **شرع لكم من الدّين ما وصى به نوحا والّذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى** » وهؤلاء هم الطبقة العليا من الخلائق وعليهم تدور الشفاعة حتى يردّوها إلى خاتمهم وأفضلهم .

وحينما تشير الآية الكريمة إلى نبوته ﷺ الّتى فهمناها من نصّ الآية الكريمة على كونه ﷺ رسول الله ، تضيف جديداً إلى النبوة المجرّدة الّتى اندرجت بالضرورة تحت الرّسالة . إنّ الجديد فى قوله تعالى : « **وخاتم النبيين** » هو كونه ﷺ خاتم النبيين وبذلك يكون ﷺ خاتم المرسلين بطريق الأوْلى والأحرى ، لأنّ الباب الموصل إلى الرّسالة هو النبوة . فإذا أوصد الباب الموصل إلى الرّسالة وهو باب النبوة فقيل : « وخاتم النبيين » كان ذلك أعمق فى الدّلالة على نفى كلّ من الرّسالة والنبوة بعد محمّد ﷺ ، وكان ذلك مظهراً من مظاهر إعجاز القرآن الكريم . فنحن بصدد التنويع فى الأسلوب . ونحن بصدد تعداد لثلاثة مظاهر من نعم الله تعالى الكبرى عليه ﷺ . وقد تمّ التّعبير عنها فى أوجز أسلوب وأبسط أسلوب وأبلغ أسلوب « **ولكن رسول الله وخاتم النبيين** » .

---

(١) سورة الصافات ١٣٠

(٢) سورة النمل ٥٩

(٣) سورة الشورى ١٣

وما أكثر الأحاديث النبوية الشّريفة الّتى تنصّ على أنه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين : عن « أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ الرّسالة والنبوة قد انقطعت . فلا رسول بعدى ولا نبى . قال : فشق ذلك على النّاس فقال : ولكن المبشرات . قالوا يا رسول الله . وما المبشرات ؟ قال : رؤيا الرّجل المسلم . وهى جزء من أجزاء النبوة ... عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلاّ موضع لبنة . فكان من دخلها فنظر إليها قال : ما أحسنها إلاّ موضع هذه اللبنة . فأنا موضع اللبنة . ختم بى الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام . ورواه البخارى ومسلم والترمذى .. عن أبى هريرة رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : فضلت على الأنبياء بست . أعطيت جوامع العلم . ونصرت بالرّعب . وأحلت لى الغنائم . وجعلت لى الأرض مسجداً وطهورا . وأرسلت إلى الخلق كافة . وختم بى النّبيّون.[1] قال الزّهرى : أخبرنى محمّد بن جبير بن مطعم عن أبيه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنّ لى أسماء . أنا محمّد وأنا أحمد . وأنا الماحى ، الّذى يمحو الله تعالى بى الكفر . وأنا الحاشر الّذى يحشر النّاس على قدمى . وأنا العاقب الّذى ليس بعده نبى أخرجاه فى الصحيحين[2] .

ونحن وراء ذلك نودّ أن نتحدث فى موضوعين اثنين متعلقين بالآية الكريمة . أمّا الموضوع الأوّل فهو نعمة الله تعالى على عبده المصطفى ﷺ وعلى خلقه بختم باب النبوة به ﷺ . وأمّا الموضوع الثّانى فهو الادّعاءات التى نسمعها الفينة بعد الفينة من متنبّئين كذّابين يعملون بكلّ مظاهر الدّس والاحتيال ولىّ أعناق النصوص ليا ، من أجل التلبيس على النّاس ، ومحاولة النيل من صرح الإسلام العتيد عن طريق تشتيت الجماعة المسلمة بهذه الدّعاوى وأمثالها وتمزيق وحدتها وهدم بنائها ونقض صفّها . وإنّ كلاً من هذين الموضوعين بحاجة إلى أن نقف عنده بعض الوقت .

إنّ من أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمّة المسلمة لله ربّ العالمين ، أن أتمّ جلّ وعلا نعمته عليها بأن أكمل لها دينها الّذى رضيه لها . وقد قال عزّ من قائل[3] :

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٩٣

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٩٤

(٣) سورة المائدة ٣

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾

وإنّ من أهمّ مظاهر هذا الكمال والأدلة عليه أمرين اثنين على غاية من الأهمية . ولم تشأ العناية الإلهية أن يتحقق واحد منهما لأى من الدّيانات السّماوية السّابقة أمّا هذان الأمران فهما حفظ الله تعالى لكتابه العزيز وكون سنة المصطفى ﷺ قد سخر الله تعالى من خدمها خدمة عجيبة ، أذهلت الدّنيا كلها .

أمّا القرآن الكريم فقد تكفل الله تعالى بحفظه إلى أن يرث عزّ وجلّ الأرض وما عليها . قال عزّ من قائل[1] : « **إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون** » ولم تشأ العناية الإلهية أن يتحقق شيء من ذلك الحفظ لأى من الكتب السّماوية السّابقة ، بحيث إن الملاحظ على الكتب السّماوية الأربعة السابقة التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم ، وهى صحف إبراهيم وزبور داود وتوراة موسى وإنجيل عيسى عليهم صلوات الله وسلامه أنّ صحف إبراهيم وزبور داود عليهما السّلام لا نكاد نعرف عنهما إلاّ اسميهما. وإنّ كلاً من التّوراة والإنجيل قد تعرضا لكثير من التغيير والتبديل، بنصّ القرآن الكريم الّذى سبق البحث العلمى النزيه الّذى قرّر هو الآخر بقوّة هذه الحقيقة وأعلنها.

وإنّ حفظ الله تعالى للقرآن الكريم من أن يناله أقل القليل من التحريف والتبديل اللذين تسرّبا إلى كل الكتب السّماوية السّابقة ، أوضح من أن يحتاج إلى أىّ دليل . وإنّ تساوى الأدلة فى تبيين حقيقة هذا الحفظ ، يدفعنى إلى اختيار دليل واحد فقط ، باعتباره أقرب الأدلة البارزة التى صادفتها من الواقع أخيرا. وهذا الدّليل مأخوذ من تماثل كلّ مخطوطات المصحف الشريف فى كل متاحف الدّنيا وخزائن كتبها . لقد زرت فى شهر ذى الحجة من عام ١٤٠٠ هـ أسبانيا حاليا الأندلس المسلمة قديما. وقمت بزيارة مكتبة الأسكوريال بالقرب من العاصمة مدريد . وقد فهمت أنّ زهاء عشرة آلاف مخطوطة عربية موجودة فى المكتبة . وللاحاطة ، لم يشر الدّليل مطلقاً ، من قريب أو بعيد ، إلى العرب والمسلمين الّذين مكثوا فى الأندلس المسلمة زهاء ثمانية قرون ، حتى اجتث التعصّب المسيحى الإسلام من جذوره . لقد حاول الدّليل وبعض الزائرين فى المجموعة الّتى أنا فيها ، وفيهم أستاذ أمريكى من جامعة جنوب كاليفورنيا ، أن يقرأوا أسطرا من بعض المخطوطات المعروضة صفحات منهـــا .

---

(١) سورة الحجر ٩

فوعدت أن أقرأ ما تيسر وأترجم أوّل ما سيصادفنا من مخطوطات عربية . لقد صادف يوم زيارتى لمكتبة الأسكوريال السّادس عشر من الشهر المذكور ، ومثل هذا التاريخ يعنى أنى قد انتهيت بفضل الله تعالى من قراءة الجزء السّادس عشر من المصحف ذلك اليوم ، حيث إنى أبتدىء بفضل الله تعالى حياتى اليومية بقراءة جزء واحد من المصحف الشريف نظرا فغيبا ، وحينما وصلت إلى نماذج المخطوطات المعروضة كانت المفاجأة بالنسبة لى على جهة الخصوص حينما تبينت أن الصفحتين المعروضتين من مخطوطة المصحف الشّريف كانتا من سورة طه ابتداءً من أوّلها أى من الجزء السّادس عشر ! لقد كانت المفاجأة مثيرة لى بدرجة كبيرة فقد أهاجت كوامن الشّجن وأنا فى جزء عزيز من أجزاء العالم الإسلامي اقتطعه الخصوم اقتطاعا . إنّى بطريقة عفوية بدأت أقرأ المكتوب من أوّل سورة طه ، وكأنّ المخطوط المذهب الغاية فى الجلال والجمال قد انتهى ناسخة لتوّه من تحبيره ، ثمّ تحوّلت إلى القراءة غيبا . وكانت مفاجأة الحاضرين وعلى رأسهم الأستاذ من جامعة جنوب كاليفورنيا ، ودهشتهم كبيرتين ، لاعتقادهم – قياسا على حقيقة علاقتهم بكتبهم الدّينية – أنّ حفظ أجزاء من كتاب مقدس عن ظهر قلب ، أمر مستحيل ، فكيف أمكن حفظ أجزاء من القرآن الكريم بل كله . وكانت الدّهشة فوق كلّ تصور حينما أدركوا يقينا أنّ ثمّة أطفالا صغارا فى حدود العاشرة يستطيعون بفضل الله تعالى الّذى يسّر القرآن الكريم للذّكر ، أن يستظهروا القرآن الكريم كلّه عن ظهر قلب ويرتلوه ترتيلا . لقد تمثلت فى تلك اللحظة تسخير الله تعالى فريقا من عباده للعمل من أجل تحقيق وعده جلّ وعلا بحفظ الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، كما تمثلت على جهة الخصوص جماعات تحفيظ القرآن الكريم فى المملكة العربية السعودية التى انطلقت من نواتها فى مكة المكرمة والتى أعتبرها أعظم منجزات المسلمين فى القرن الرّابع عشر الهجرى ، والتى أسأل الله تعالى أن تعمّ البلاد العربية والإسلامية من أقصاها إلى أقصاها . سدّد الله تعالى خطى العاملين فى سبيله جلّ وعلا وأنار لهم السّبيل إنّه على كلّ شيء قدير .

وفيما يتصل بسنة المصطفى ﷺ ، سبق لنا بشأن الآية الكريمة الحادية والعشرين الّتى تنصّ على كون المصطفى ﷺ هو الأسوة الحسنة ، أن تحدّثنا عن تسخير الله تعالى فريقا من عباده لخدمة سنة المصطفى ﷺ ، بدرجة أذهلت الدّنيا

ولازالت تذهلها بحيث إنك تنتهى حتما إلى أنّ ثمّة سيرة واحدة فقط فى الدّنيا هى الّتى يصحّ أن تتخذ أسوة حسنة ، ألا وهى سيرة محمّد بن عبد الله ﷺ .

وإنّ هذه العناية الإلهية بالقرآن الكريم وسيرة المصطفى ﷺ ، أفهمت ثبات أهمّ دعامتين يعتمد عليهما دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لنا وأتمّ به النعمة علينا . ومعروف أنّ هاتين الدّعامتين تمثلان أهمّ مصادر التشريع الإسلامى المعروفة . وهى على التوالى :

القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة . وتشمل أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته . والإجماع . والقياس . ومعروف أنّ التحوّل يتمّ على التّوالى من المصدر الأوّل إلى الذى يليه وهكذا . فما لم يوجد النصّ عليه فى القرآن الكريم يبحث عنه فى السنة المطهرة ثمّ يتمّ التحوّل إلى الإجماع فالقياس . ومن هنا يتبين كل من الثبات والمرونة اللّذين يتسم بهما فى آن واحد التشريع الإسلامى . إنّ أهمّ مصدّر وهو القرآن الكريم محفوظ إلى يوم القيامة بحفظ الله تعالى له . وإنّ السّنة النبوية المطهرة المبينة للقرآن الكريم محفوظة بحفظ الله تعالى لها إلى يوم القيامة بإذن الله تعالى . وثمّة إجماع العلماء ، وهو مظهر من مظاهر الاجتهاد والقياس وهو مظهر أكبر من مظاهر الاجتهاد . ومن نعم الله تعالى علينا نحن المسلمين أنّ من اجتهد فأصاب . فله أجران أجر الاجتهاد وأجر الإصابة . ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد هو أجر الاجتهاد ، كما صرّح بذلك الحديث النبوى الشريف .

ونتيجة لهذه الأصول التى تجمع فى آن واحد بين الثبات من ناحية ، والمرونة من ناحية أخرى ، كان من أهمّ مميزات المسلمين خلال عصورهم الذّهبية على جهة الخصوص ، تلك العقلية الجبّارة النيرة الّتى أغنت المكتبة الإسلامية بلذيذ العلم وشهى الفكر .

وإنّ من أهمّ العوامل التى شجعتهم على خوض غمار كلّ له ، والتصدى دون أدنى تردد لكلّ معضلة اطمئنانهم إلى أنّ الطريق الذى يسلكون ، معتمدين على الله تعالى ثمّ على جدّهم واجتهادهم هو الطريق الوحيد الّذى يمكن أن يوصلهم إلى ما يصبون إليه يحدوهم دائماً وأبدا الأمل فى أن يكون لهم أجر الاجتهاد والإصابة . وإنما كان هذا الاطمئنان ملازما لهم ، بسبب النعمة التى امتن الله تعالى بها على

رسوله المصطفى وعلى الإنسانية جمعاء ، وهى نعمة ختم النبوة .

إنّ نعمة ختم النبوة تعنى أن الإنسانية ممثلة فى خير أمّة أخرجت للنّاس ، قد بلغت مرحلة الرّشد لذلك فهى وقد اتضح أمامها طريق الحق وطريق الباطل ، أهل لأن يوثق بها وبرشدها كى تسير فى طريق الهدى والفلاح وتتنكب طريق الباطل والضلال . وإنّ من أقوى الأدلة على كون الإنسانية قد بلغت فى مدارج الرّقى العقلى والفكرى والنفسى ذلك المستوى الرّفيع ، ومن مظاهره نعمة ختم النبوة التى تعنى أن الإنسانية قد بلغت رشدها وأدركت أشدها ، هو أنّ معجزة الإسلام الكبرى الخالدة عقلية . إنها القرآن الكريم الّذى يهدى للطريقة التى هى أقوم ، والّذى يتطلّب عقلاً واعيًا وفكرًا نيرًا ونفسا مشرقة لتدبره الذى حث عليه القرآن الكريم فى غير ما موضع فى مثل قوله تعالى فى سورة النساء[1] : ﴿ **أفلا يتدبرون القران ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً** ﴾ وقول تعالى فى سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام[2] : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾ وربما كان مفيداً أن نقرّر أنّ القرآن الكريم فيما يزيد على الأربعين موضعا حث على استعمال كلّ من العقل والفكر وأشار إلى كلّ منهما فى معرض الذّكر الحسن والثناء .

وأنت بتدبرك للرّسالة السّماوية السّابقة على الرّسالة المحمدّية وهى رسالة عيسى عليه الصّلاة والسّلام . تستطيع أن تتبين أنّها إنّما تعنى بالجانب الناعم من الحياة ، الجانب العاطفى منها ، فقد كان عليه الصّلاة والسّلام متخصصا فى الرّوحانيات . ومعروف أنّ الحياة روح وعقل ، عاطفة وفكر . حقاً إنّ ذلك الطّابع المميز لرسالته كان ردّ فعل لإسراف اليهود فى المادّيات وانحرافهم برسالة موسى عليه السّلام إلى هذا الاتجاه المادى المتطرف . ومع ذلك تظل الحياة هى الحياة الّتى أهمّ ما يميزها انقسامها بالتساوى بين العقل والعاطفة والفكر والروح والنفس . وكأن عناية المسيحية بالجانب العاطفى النّاعم من الحياة ، قد نزلت أتباعها منزلة الغلام الّذى ليس هو بالطفل الّذى يحبو على أربع القريب العهد بمهده ، وفى الوقت نفسه ليس هو بالفتى الّذى بلغ أشدّه ، واستوى فهو يشتد فى عدوه . إنّما هو بمنزلة الغلام

---

(١) الآية ٨٢

(٢) الآية ٢٤

الذى بلغ لتوّه السّعى . وهذا الغلام الّذى بلغ لتوّه السّعى حاول لفترات أن يتمسك بهذا الجانب الواحد من التعاليم الرّوحية ، ولكنه مالبث أن تبين أنّ الحياة ليست روحا فقط . ومن هنا كان الطّابع الغالب على أتباع المسيحية التبرم بتلك التعاليم الرّوحية الخالصة ، إلى درجة التنكر لها والوقوف منها موقف النقيض والمناوىء . وقد تجلّى ذلك الانصراف عن تلك التعاليم والعجز عن تطبيقها فى صور مختلفة . فإذا نحن تجاوزنا تلك الفئة القليلة من رجال الدّين الّذين حاولوا التمسك بالتعاليم المسيحية ما أمكن ، فإنّ الكثرة الكاثرة من الأتباع قد ابتعدت كثيراً عن تلك التعاليم للدرجة الّتى وجدنا معها أحياناً الصراع بين الدّين ممثلا فى الكنيسة ورجال الدّين وبين الدّولة . كما وجدنا الفصام النكد بين الدّين والدّولة والعداء العنيف بين الدّين والعلم . ولا نريد أن نخوض فى تفاصيل هذه الأمور ، ولكنا نستطيع أن نزعم أن مرحلة الرّشد بالنسبة للإنسانية حينما حانت ، لم تكن تلائمها تلك التعاليم الّتى أريد لها أن تكون مؤقتة ومحددة بفترة بعينها . وقد تجلى عدم الملاءمة ذلك فى العديد من الصور ومنها التى إليها أومأنا[1] .

ونحن إذا نظرنا إلى الفترات السّابقة على المسيحية استطعنا أن نبين مرحلة الطفولة بالنسبة للإنسانية ، حيث إنّها إنما تؤخذ بصوارم الأوامر ورادع الزواجر ، واستطعنا أن نقول مع الإمام محمّد عبده فى رسالة التوحيد عن هذه الفترات[2] : « جاءت أديان والنّاس من فهم مصالحهم العامة ، بل والخاصة فى طور أشبه بطور الطفولية للناشىء الحديث العهد بالوجود ، لا يألف منه إلاّ ما وقع تحت حسه ، ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه . وأن يتناول بذهنه من المعانى مالا يقرب منه لمسه . ولم ينفث فى روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه على غيره من عشيرته أو بنى جنسه فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه ، فى هم شاغل عمّا يلقى إليه فيما يصله بغيره . اللهم إلاّ يدا تصل إلى فمه بطعام . أو تسنده فى قعود أو قيام . فلم يكن من حكمة تلك الأديان أن تخاطب النّاس بما يلطف فى الوجدان . أو يرقى إليه بسلم البرهان . بل كان مع عظيم الرّحمة أن تسير بالأقوام وهم عيال الله ، سير الوالد مع

---

(١) انظر هنا رسالة التوحيد للإمام محمّد عبده الفصل الخاص بترقى الأديان بترقى الإنسان وإكمالها بالإسلام ص ١٦٧ فما بعدها .

(٢) رسالة التوحيد ص ١٦٧

ولده ، فى سذاجة السّن . لا يأتيه إلاّ من قبل ما يحسه بسمعه أو ببصره . فأخذتهم بالأوامر الصّادعة . والزّواجر الرّادعة . وطالبتهم بالطّاعة . وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة . كلفتهم بمعقول المعنى جلى الغاية ، وإن لم يفهموا معناه ، ولم تصل مداركهم إلى مرماه . وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم ، وتنفعل به مشاعرهم . وفرضت عليهم من العبادات بما يليق بحالهم هذه » .

وبهذا نتبين نعمة الله تعالى الكبرى على المسلمين بكون نبيهم محمّد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، لأنّ كلّ الأسباب التى تدعو إلى ذلك قد تهيأت ، كما يتبين أنّ الّذين يدّعون النبوة إنّما يكذبون على الله تعالى وعلى رسوله الكريم ﷺ ويعمدون إلى سلب هذه الأمّة رشدها وحقوقها فى ممارسة صلاحياتها باعتبارها خير أمّة أخرجت للنّاس ، قد هيأت لها العناية الإلهية كلّ الأسباب التى تمكنها من ممارسة تلك الحقوق . بحيث إنّ لها إن أصابت أجرين وإن أخطأت أجراً وحدا . ثمّ إنّ هؤلاء الكذابين بادّعائهم النبوة إنما يسلبون الأمّة طاقاتها ويبددون قواها شذر مذر . فلا تتجه الأمّة إلى ميادين العمل والكفاح ، الإبداع والاختراع ، الجدّ والاجتهاد باعتبار من أعطى صلاحيات العمل ، عليه أن يعمل فى حال قدرته وإلاّ سلم الرّاية إلى من هو أكثر منه كفاءة وبالتالى لا تتوقف أبداً عجلة السعى والاجتهاد ، لأنّ خير أمّة أخرجت للناس ، من عناصرها ومقوماتها بفضل الله تعالى وعونه ، أنّها قادرة على أن تلج كلّ ميادين العمل والاجتهاد بكفاءة واقتدار . فهذا هو وعد الله تعالى بأن ينصر فى كل الميادين من ينصره . إنما تتبلد الأمّة وتعطل مواهبها وتشل قدراتها بأمثال تلك الدّعاوى الباطلة ، وتتحوّل الأمّة بالتالى إلى حال تشبه حال أولئك الموظفين الذين سلبوا اختصاصاتهم ، الأسباب التى من أجلها وظفوا . لذا فهذه الحفنة من الموظفين ماهرة فى التسويف والتأجيل عاجزة عن تحمل أدنى مسئولية وإنّ الأمّة التى تلك حالها هى الأخرى عاجزة عن تحمل أدنى مسئولية ، وفى انتظار من سيأتى من الغيب كى يحل بعصاه السحرية كل مشكلاتها ومعضلاتها . إنّ هذا هو الهدف الّذى يسعى إليه خصوم هذا الدّين الذى رضيه الله تعالى لعباده ، فهم يحتضنون هؤلاء الأدعياء كى يضربوا عصفورين بل عصافير بحجر واحد كما يقول المثل . هم يفتتون الأمّة الإسلامية ويشلون حركتها ويعطلون كل قدرة لها على العمل وتركيز الجهود والإبداع . والدّليل على ذلك هذه المعارك الجانبية التى لا أوّل لها ولا آخر ،

والتى تجرّ إليها كلّ وقت الأمة الإسلامية . ولا نريد أن نعيّن فرقة بعينها لأنّها معروفة ومشهورة بسبب العون والدعم اللذين يقدمان للقوم من كل خصوم الإسلام وبسبب تسليط الأضواء عليها من مثل أولئك الخصوم . وما الذى يمكن أن يقدم من عون ودعم لإحدى هذه الفرق الضالة المضلة أكثر من أن تحتضن الدّولة المغتصبة لفلسطين العربية المسلمة أهمّ مركز لإحدى هذه الفرق الضّالّة ؟ ومن مظاهر تفتيت الأمّة الإسلامية التى يريد الخصوم بل عليها يحرصون أن يستثيروا فى كلّ جزء من أجزاء الأمّةالإسلاميةنعرة القومية والعصبية والشّعوبية . إنّ ممّا يتعمد الخصوم إثارته السّؤال الماكر : لماذا يكون نبى المسلمين عربيا فقط ولا يكون هناك نبى هندى مثلا أو أفريقى ؟ لم لا يكون للهنود نبيهم وللأفارقة نبيهم ؟ هل الهنود أو الأفارقة أعجز من العرب ؟ إذن لم لا يكون لكلّ نبيه الخاص به . وهكذا . هل هؤلاء يجهلون أنّ النبوة منحة إلهية وقد ختمت بمحمّد بن عبد الله ﷺ . هم لا يجهلون ذلك قطعا . ولكن هدفهم السيىء الّذى يحرصون على الوصول إليه يبيح لهم ارتكاب كل وسيلة .

لقد أفصح لى بعض الأساتذة من المسلمين الأفارقة ، بأن خصوم الإسلام بقصد إقصاء الإسلام ابتداءً ، كى يحلوا محلّه بعد ذلك ما شاءوا ، وخاصة المسيحية ، هم يقولون للأفارقة إنّ بلادكم ليست بلاد محمّد وليست بلاد المسيح . فلماذا لا يكون لكم نبيكم الأفريقى الخاص بكم ؟ هذا الكلام يقال للمسلمين . وبطبيعة الحال إنما يراد بهذا القول إخراج المسلمين من حظيرة الإسلام أولّ الأمر ، وبطبيعة الحال مثل هذا الكلام لا يقال لغير المسلمين .

وإنّ تشجيع خصوم الإسلام لهؤلاء المتنبئين الكذابين الضالين المضلين ، وتقديم كلّ عون ودعم لهم بالإضافة إلى تمزيق شمل المسلمين الّذى لا يستفيد منه سوى هؤلاء الخصوم أخيرا ، هم يتفقون مع هؤلاء الأدعياء على الثمن الذى يدفع مقدما . أمّا هذا الثمن الّذى يدفع مقدما . فهو الاتفاق على حلّ عرى الإسلام عروة عروة . وما الذى يريده المستعمرون حينما كانوا يجثمون على صدر العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، ويحرصون على البقاء إلى الأبد ، مِنْ دَعِيٍّ من هؤلاء الأدعياء وهم كثيرون أكثر من تعطيل هذا الدّعى أو ذاك لذروة سنام الإسلام ، كما صرح بذلك

الصّادق المصدوق محمّد بن عبد الله ﷺ ، أعنى فريضة الجهاد فى سبيل الله تعالى ، التى لولاها لما استطاع الإسلام أن يضمن بقاءه فى عاصمته الأولى ، المدينة المنورة فضلاً عما سواها من أماكن . وقد ثبت من التجربة ومن دليل الهجرة إلى الحبشة أوّلاً وثانيا . وإلى المدينة ثالثا وأخيراً ، أنّ هؤلاء الخصوم لا يزدادون بالعفو والصفح إلاّ تماديا فى الشر والعدوان ؟ وانظر إلى ما يقول ابن كثير فى صفات هؤلاء الكذابين الضالين المضلين . وانظر فى المقابل إلى النعم التى امتن الله تعالى بها على المصطفين الأخيار ، أنبيائه جلّ وعلا ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، يقول رحمه الله تعالى[1] : « وقد أخبر الله تبارك وتعالى فى كتابه ، ورسوله ﷺ فى السنة المتواترة عنه أنه لا نبى بعده ليعلموا أنّ كلّ من ادّعى هذا المقام بعده ، فهو كذّاب أفاك دجّال ضال مضل . ولو تحرّق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات فكلها محال وضلال عند أولى الألباب ، كما أجرى الله سبحانه وتعالى على يد الأسود العنسى باليمن ومسيلمة الكذاب باليمامة ، من الأحوال الفاسدة ، والأقوال الباردة ما علم كلّ ذى لب وفهم وحِجًى أنهما كاذبان ضالاّن لعنهما الله . وكذلك كلّ مدّع لذلك إلى يوم القيامة ، حتى يختموا بالمسيح الدّجال . فكل واحد من هؤلاء الكذّابين ، يخلق الله تعالى معه من الأمور ، ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها . وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه . فإنهم بضرورة الواقع ، لا يأتمرون بمعروف ، ولا ينهون عن منكر ، إلاّ على سبيل الاتّفاق أو لما هم فيه من المقاصد إلى غيره . ويكون فى غاية الإفك والفجور فى أقوالهم وأفعالهم كما قال تعالى[2] : ﴿ **هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كلّ أفاك أثيم** ﴾ الآية . وهذا بخلاف حال الأنبياء ، عليهم الصّلاة والسّلام ، فإنهم فى غاية البر والصّدق والرّشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويأمرون به وينهون عنه . مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات والأدّلة الواضحات والبراهين الباهرات . فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمرا مادامت الأرض والسّماوات». ويقول ابن الجوزى فى صيد الخاطر[3] : الحق لا يشتبه بباطل ، إنما يموه الباطل عند من لا فهم له . وهذا

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٩٤

(٢) سورة الشعراء ٢٢١ ، ٢٢٢

(٣) ص ٣٣٥ - ٣٣٨

فى حق من يدّعى النبوات . وفى حق من يدعى الكرامات . أما النبوات فإنه قد ادّعاها خلق كثير ظهرت قبائحهم وبانت فضائحهم . ومنها ما يوجبه خسة الهمة والتهتك فى الشهوات والتهافت فى الأقوال والأفعال حتى افتضحوا . فمنهم الأسود العنسى . ادّعى النبوة ولقب نفسه ذا الخمار ، لأنه كان يقول يأتينى ذو الخمار . وكان أوّل أمره كاهنا يشعوذ فيظهر الأعاجيب ... وبان للعقلاء أنّه كان يشعبذ . ومنهم مسيلمة . ادّعى النبوة وتسمى رحمان اليمامة لأنّه كان يقول : الّذى يأتينى رحمان . فآمن برسول الله ﷺ وادّعى أنّه قد أشرك معه . فالعجب أنّه يؤمن برسول ويقول إنهّ كذاب . ثم جاء بقرآن يضحك النّاس مثل قوله : يا ضفدع بنت ضفدعين . تنقى ما تنقين . أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطّين . ومن العجائب شاة سوداء تحلب لبنا أبيض . فانهتك ستره فى هذه الفصاحة . ثمّ مسح بيده على رأس صبى فذهب شعره . وبصق فى بئر فيبست . وتزوج سجاح التى ادّعت النبوة فقالوا : لابدّلها من مهر فقال : مهرها أنّى قد أسقطت عنكم صلاة الفجر والعتمة .. ومنهم طليحة بن خويلد ، خرج بعد دعوى مسيلمة النبوة وتبعه عوام ونزل سميراء[1] فتسمى بذى النون . يقول : إنّ الّذى يأتيه يقال له ذو النون . وكان من كلامه : إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم ولا قبح أدباركم شيئاً . فاذكروا الله أعفة قياما . ومن قرآنه : والحمام واليمام والصرد الصّوّام ليبلغن ملكنا العراق والشام .. وقد ذكرت جمهور هؤلاء وحيلهم فى كتاب التاريخ المسمى بالمنتظم . وما فيهم من يتم له أمر إلاّ ويفتضح » .

والعجيب فى أمر هؤلاء الأدعياء أنهم يلوون أعناق النصوص ليّا ، ويتعمدون ابتكار معانى للآيات والألفاظ القرآنية ، ممّا لم يفهمه السّلف الصّالح ولم يقل به، وهم من هم فى امتلاك ناصية اللسان العربى وأخذهم قصب السَّبق فى فهم معانيه وإدراك مراميه . ومن الآيات القرآنية الّتى حلا لهؤلاء المدّعين أخيراً تأويلها وفهمها على غير وجهها هذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها ، آية ختم النبوة . وإنّ من الأمور المضحكة المبكية أن يذهب هؤلاء إلى القول بأنّ لفظة خاتم فى الآية الكريمة لا تعنى آخر الأنبياء ونهايتهم ، إنما تعنى هذه اللفظة « خاتم » ما يلبسه الإنسان فى

---

(١) سميراء بفتح أوّله وكسر ثانيه بالمد وقيل بالضّمّ : وهو منزل بطريق مكّة بعد توز مصعدا وقيل الحاجز .. وأكثر النّاس يقوله بالقصر . معجم البلدان .

إصبع يديه ممّا يسمى بالخاتم ، وهو يكون صغيرا عادة ولطيفا . وبما أنّ محمداً ﷺ آخر الأنبياء ، فقد جاءت لفظة الخاتم دليلا على هذا الزمن المتأخر بالقياس للأنبياء السّابقين ، ودليلا على لطفه ﷺ وظرفه ، لأنّ هذه هى حقيقة النظرة إلى الخاتم فى إصبع حامله . وبالتالى لا يعنى ذلك فى نظرهم أنّه ﷺ آخر الأنبياء على الإطلاق . وهنا يدسّ القوم الأسباب التى تجعلهم ينحون هذا المنحى ويذهبون إلى هذا الرّأى ، وهى ذات المحظورات التى إليها أومأنا . هم يعتبرونها أسبابا وجيهة لفهمهم المعوّج الممقوت . ونحن نعتبرها وبالاً على الإسلام والمسلمين .

ونحن لا نودّ أن نخوض مع هؤلاء العابثين فى هذا العبث الّذى لووا معه أعناق النصوص ليّا ، لحاجة فى أنفسهم ، هى طعن الإسلام فى الصميم . وإنما نكتفى باقتباس نصّ لغوى يعتبر فى اعتقادنا من أبلغ النصوص التى نسأل الله تعالى أن ينفع بها الجميع ، ويعيد المنحرفين عن جادة الصّواب إلى صوابهم ورشدهم . وهذا النّصّ اللغوى من معجم مقاييس اللغة لابن فارس . وميزة هذا المعجم أنّه يجمع فى نسق المعانى المتشعبة والمتفرعة والمنبثقة عن الأصل الواحد . ويتضح من هذا النّصّ أنّ لفظة خاتم التى وجهها القوم غير وجهها إنما ترتبط فى المقام الأوّل ببلوغ آخر الشىء ونهايته ، لأنها مأخوذة من الختم . فبما أن العرب أمّة أمية لا يقرأون ولا يكتبون ، فقد كان الواحد منهم يختم بالخاتم الّذى يحرص على كونه قريبا منه وفى مكان أمين بعيد عن عبث العابثين . ولا يوجد مكان أقرب من يد الإنسان ولا آمن من إصبعه . ولهذا أطلق على الحلقة التى توضع فى الإصبع وعليها اسم حاملها لفظة الخاتم . لأنها يختم بها الكلام . دليلاً على الموافقة على مضمونة وفحواه . وبهذا يتبين أن لفظة الخاتم إنّما أطلقت على هذه الحلقة التى توضع فى الإصبع لارتباطها بالختم الذى يختم به الخطاب مثلاً ويذيل به . أى يوضع فى نهايته وذيله . يقول ابن فارس رحمه الله تعالى[1] : « الخاء والتاء والميم أصل واحد . وهو بلوغ آخر الشىء . يقال : ختمت العمل . وختم القارىء السورة . فأما الختم وهو الطبع على الشىء ، فذلك من الباب أيضاً ، لأن الطبع على الشىء لا يكون إلاّ بعد بلوغ آخره فى الأحراز .

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس ٢٤٥/٢ تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م حلبى مصر . والزيادة بين القوسين من لسان العرب . وفيه:أخذت خيتامى .

والخاتم مشتق منه لأنه به يختم . ويقال : الخاتِم والخاتام والخيتام قال :

(يا هند ذات الجورب المنشق) لَأخذ ختامي بغير حق .

والنبى ﷺ خاتم الأنبياء لأنّه آخرهم ، وختام كل مشروب آخره . قال الله تعالى[1]: « ختامه مسك » أى إنّ آخر ما يجدونه منه عند شربهم إيّاه رائحة المسك » .

ويقول الطبرى[1] : « والنصب فى رسول الله ﷺ بمعنى تكرير كان رسول الله ﷺ والرّفع بمعنى الاستئناف ولكن هو رسول الله . والقراءة النصب عندنا »

ويقول[2] : « واختلفت القرّاء فى قراءة قوله : وخاتم النبيين . فقرأ ذلك قرّاء الأمصار سوى الحسن وعاصم بكسر التاء من خاتم النبيين ، بمعنى أنه ختم النبيين ... وقرأ ذلك فيما يذكر الحسن وعاصم خاتم النبين بفتح التاء بمعنى أنه آخر النبيين » .

ويقول الزّمخشرى[3] : « فإن قلت : كيف كان آخر الأنبياء وعيسى ينزل فى آخر الزّمان . قلت : معنى كونه آخر الأنبياء أنّه لا يُنبأ أحد بعده . وعيسى ممّن نبئ قبله . وحين ينزل ينزل عاملا على شريعة محمّد مصليا إلى قبلته ، كأنه بعض أمته » ويقول القرطبى[4] : قوله تعالى : « ولكن رسول الله . قال الأخفش والفراء : أى ولكن كان رسول الله . وأجازا ولكن رسول الله وخاتم بالرّفع .. « وخاتم » قرأ عاصم وحده بفتح التاء بمعنى أنهم به ختموا . كالخاتم والطّابع لهم . وقرأ الجمهور بكسر التّاء بمعنى أنّه ختمهم أى جاء آخرهم . وقيل : الخاتم والخاتم لغتان مثل طابع وطابع ودانق ودانق وطابق من اللحم وطابق » .

« **وكان الله بكل شىء عليما** » ومن هذه الأشياء كونه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين . قال تعالى : **﴿ما كان محمّد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين . وكان الله بكلّ شىء عليما﴾**.

---

(١) سورة المطففين ٢٦

(٢) تفسير الطبرى ١٣/٢٢

(٣) تفسير الطبرى ١٣/٢٢ وانظر البحر المحيط ٢٣٦/٧ والكشاف ٥٤١/٢

(٤) الكشاف ٥٤٢/٢ وانظر البحر المحيط ٢٣٦/٧

(٥) تفسير القرطبى ص ٥٢٧٨

(١٢)

سراجٌ منير

الآيات ٤١ ــ ٤٨

هذا القسم الّذى اخترنا له هذا العنوان « **سراج منير** » يتكوّن من ثمانى آيات كريمات ، ابتداءً بالآية الكريمة الحادية والأربعين ، وانتهاءً بالآية الكريمة الثامنة والأربعين ، تخاطب المؤمنين وتأمرهم بأن يذكروا الله تعالى ذكرا كثيراً وأن يسبحوه بكرة وأصيلا . مستضيئين فى كلّ أعمالهم الصّالحة ، وفى مقدّمتها الذّكر ، بالرّسول الكريم ، الأسوة الحسنة والسّراج المنير . فالله سبحانه وتعالى هو الّذى يصلى على هؤلاء المؤمنين ليخرجهم من الظلمات إلى النور . وإنّ ملائكته جلّ وعلا لتصلى على المؤمنين كذلك من أجل أن يكون لهم منه جلّ وعلا يوم القيامة السّلامة والأمن والطّمأنينة وكذلك الأجر العظيم .

وإنّ هذا الرسول الكريم الأسوة الحسنة قد أرسله الله تعالى شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعيا إلى الله تعالى بإذنه وسراجاً منير . إنّ على الرّسول الكريم ، وهو الأسوة الحسنة ، ألاّ يطيع الكافرين والمنافقين وأن يدع أذاهم وأن يتوكّل على الله وكفى بالله وكيلا .

وإنّ حديث الآيات الكريمات عن المؤمنين باعتبارهم يمثلون بفضل الله تعالى ، ثمرة منهج التربية القرآنية . وما أكثر الحديث فى السّورة الكريمة عن هؤلاء المؤمنين ، باعتبارهم يمثلون فى اعتقادهم وعباداتهم وسلوكهم ومعاملاتهم أحسن الصّور ، الّتى ينبغى أن يكون فيها المسلمون لله ربّ العالمين . وربّما كان لطيفا أن نقرّر بهذه المناسبة أنّ ربّ العزّة إنما قرن فى كتابه العزيز بين الجنّة وبين صفة الإيمان العالية هذه ، وليس بين الجنّة وبين الإسلام . وقد لاحظنا قبل فى صفات المسلمين

والمسلمات فى الآية الكريمة الخامسة والثلاثين ، أنّ صفة الإيمان تأخرت عن الإسلام . وأنّ صفة ذكر الله تعالى ذكراً كثيراً هى الّتى ختمت بها السّلسلة من النعوت والصّفات ، ممّا يعتبر دليلاً على أهمية هذا النّوع من أنواع العبادة ، بدليل أنّه النّوع من العبادة الّذى قرن ربّ العزّة بينه وبين كونه كثيراً ، إذ لم يضع جلّ وعلا للذّكر نهاية ، لأنّه من أفضل أنواع العبادة ، ولأنّه يمكن أن يتحقق فى أكثر الظّروف والأحوال التى يكون فيها الإنسان قائماً وقاعداً ومضطجعا . وواضح الرّباط القوىّ بين الإيمان وصفته وبين آيات السّورة الكريمة السّابقة . ثمّ إنّ المصطفى ﷺ هو الأسوة الحسنة للمؤمنين والقدوة المثلى . إنّ من صفات السّراج المنير أن ينير للسّائرين الطّريق . وهذه هى إحدى صفات المصطفى ﷺ الّتى نصّ عليها السّياق . إنّ مدلول كلّ من السّراج المنير والأسوة الحسنة واحد . وإنّ المصطفى ﷺ ، الشّاهد والمبشّر والنذير ، والدّاعى إلى الله تعالى بإذنه والسّراج المنير ، هو الأسوة الحسنة للمؤمنين فى كل الصّفات التى يعرفون بها ، والنّعوت الّتى يتحلّون بها ، وفى مقدّمتها ذكر الله تعالى ذكراً كثيراً . وتسبيحه جلّ وعلا بكرة وأصيلا . ويضاف إلى ما سبق من رباطات بالآيات الكريمات السّابقات رباط آخر هو خطاب ربّ العزّة له وأمره إيّاه بألاّ يطيع الكافرين والمنافقين ، وأن يتوكّل على الله . وهذه المعانى هى الّتى نتبينها ، بمعناها ولفظها فى الآيتين الكريمتين الأولى والثالثة من السّورة الكريمة . وهذه هى آيات القسم . قال تعالى : ﴿ **يا أيّها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسبحوه بكرة وأصيلا . هو الّذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النّور وكان بالمؤمنين رحيما . تحيتهم يوم يلقونه سلام . وأعدّ لهم أجراً كريما . يا أيّها النبى إنّا أرسلناك شاهدًا ومبشّرًا ونذيرًا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا . وبشر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلا كبيراً . ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلا** ﴾ .

وبعد هذه النظرة الأولى العامة لآيات القسم ، نحن بحاجة إلى نظرة أخرى خاصة .

إن الآيتين الكريمتين الأوليين مترابطتان تماماً . قال تعالى : ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسبحوه بكرة وأصيلا** ﴾ فما هو الذّكر ؟ الذّكر هو

ما يجرى على اللسان والقلب . من تسبيح الله تعالى وتنزيهه وحمده والثناء عليه ووصفه بصفات الكمال ونعوت الجلال والجمال[1] وما المراد بالتسبيح ؟ عن قتادة : قولوا : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلاّ بالله[2] وما معنى سبحان الله ؟ معنى سبحان الله تنزيها لله من الصّاحبة والولد . معرفة . ونصب على المصدر ، أى أبرّىء الله من السّوء براءة[3] وما معنى بُكرة ؟ معنى البكرة بالضّمّ الغدوة . كالبكرة محرّكة . واسمها الإبكار[4] وما معنى الأصيل ؟ معنى الأصيل العشيّ . وجمعه أصل بضمتين وأصلان ، بضم الهمزة وسكون الصّاد ، وآصال وأصائل[5] قال أهل اللغة : الآصال جمع أصيل . وهو ما بين العصر والمغرب[6] .

إنّ الآيتين الكريمتين تخاطبان المسلمين فى صيغة الأمر بأن يذكروا الله تعالى ذكراً كثيراً . وسبق أن تبيّنا فى الآية الكريمة الخامسة والثلاثين عشر صفات يكمل بعضها بعضا . ومنها ذكر الله تعالى كثيراً . وحينما تختار الآيتان الكريمتان اللتان نحن بصددهما الصّفة العاشرة والأخيرة ، صفة ذكر الله تعالى ذكراً كثيراً ، فذلك معناه أنّ لهذه الصّفة معنى خاصّاً بها . ومن هذه المعانى الخاصّة بالذّكر ، أنّه يمكن أن يلازم كلّ الصفّات التّسع السّابقه . فهو يمكن أن يكون ملازما لصفات الإسلام والإيمان والقنوت والصّدق والصّبر والخشوع والصّدقة والصّيام وحفظ الفرج أى العفة ، لأنّ الذّاكر لله تعالى مشغول فمه بأحسن كلام وأعذبه ، ومن الأدلّة على إمكان لزوم الذّكر لكلّ أنواع العبادات الأخرى ، هو أن الآية الكريمة : ﴿ **يا أيُّها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً** ﴾ تضيف إلى الكثرة فى حقّ الذّكر الّتى جاءت فى الآية الكريمة الخامسة والثلاثين « والذّاكرين الله كثيراً والذّاكرات » تضيف

---

(١) فقه السّنّة ٤٨٩/١
(٢) البحر المحيط ٢٣٧/٧
(٣) القاموس « سبح »
(٤) القاموس « بكر »
(٥) القاموس « أصل »
(٦) رياض الصالحين ٥٠٩

المصدر المؤكد . ﴿ يا أيُّها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ﴾ . فنحن بصدد ذكر من نوع معين مناسب للمقام ، وبصدد كمية هائلة لا آخر لها منه . فنحن إذن بصدد الصّفتين الرّئيستين اللّتين يتحقق بهما الكمال كله والجلال فى كل أمر من الأمور الكيفية « ذكرا » والكمية « كثيرا » وكما لاحظنا ، أضافت الآية الكريمة الكيفية إلى الكمية الّتى اكتفت بالإشارة إليها الآية الكريمة الخامسة والثّلاثون . وإلى هذا الامتياز الخاصّ بالذّكر وكونه انفرد فى القرآن الكريم بين سائر العبادات بدون حدّ له ، أشار ابن عبّاس رضى الله تعالى عنهما قائلا[1] : « إنّ الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلاّ جعل لها حدّاً معلوما ثمّ عذر أهلها فى حال العذر غير الذّكر ، فإنّ الله تعالى لم يجعل له حدّاً ينتهى إليه ، ولم يعذر أحداً فى تركه إلاّ مغلوبا على تركه فقال : اذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم[2] بالليل والنّهار ، فى البر والبحر ، وفى السفر والحضر . والغنى والفقر والسّقم[3] والصّحّة . والسّرّ والعلانية وعلى كلّ حال » .

وبما أنّ التّسبيح مندرج فى الذّكر فإنّ النّصّ عليه بالذّات فى قوله تعالى : ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ دليل على المنزلة الخاصة لتنزيهه جلّ وعلا ، وتعالى عما افترى عليه الظالمون علوا كبيرا . يقول الزّمخشرى[4] : « والتّسبيح من جملة الذّكر . وإنّما اختصه من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة ليبين فضله على سائر الأذكار ، لأنّ معناه تنزيه ذاته عمّا لا يجوز عليه من الصّفات والأفعال وتبرئته من القبائح » والزّمخشرى يشير إلى قوله تعالى من سورة البقرة[5] : ﴿ قل من كان عدوّاً لجبريل فإنّه نزله على قلبك بإذن الله مصدّقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوّاً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٩٥/٣

(٢) يريد رضى الله تعالى عنه الآية الكريمة ١٠٣ من سورة النّساء . قال تعالى : « فإذا قضيتم الصّلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصّلاة . إنّ الصّلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا » .

(٣) السقم بتحريك السين والقاف والسقم بضم السين وسكون القاف والسقام بفتح السين المرض .

(٤) الكشّاف ٥٤٢/٢

(٥) الآية ٩٧ ، ٩٨

فإنّ الله عدو للكافرين﴾ والمراد بالبكرة والأصيل كلّ الأوقات وبخاصة هذان الوقتان ، قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . قال تعالى[1] : ﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربّك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النّهار لعلّك ترضى﴾ وقال تعالى[2] : ﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربّك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السّجود﴾ وقد أشير إليهما بالغدو والآصال . قال تعالى[3] : ﴿واذكر ربّك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين﴾ وقال تعالى[4] ﴿فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدوّ والآصال. رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾ كما أشير إليهما بالعشيّ والإشراق . قال تعالى[5] : ﴿اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنّه أوّاب. إنّا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق﴾ كما أشير إليهما بالعشيّ والإبكار قال تعالى[6] : ﴿فاصبر إنّ وعد الله حقّ واستغفر لذنبك وسبّح بحمد ربّك بالعشيّ والإبكار﴾ وقال تعالى[7] : ﴿قال ربّ اجعل لى آية . قال آيتك ألاّ تكلم النّاس ثلاثة أيّام إلاّ رمزا . واذكر ربّك كثيراً وسبّح بالعشيّ والإبكار﴾ . قال أهل اللغة : العشى ما بين زوال الشمس وغروبها[8] يقول ابن تيميه أثناء حديثه عن الاستغفار[9] : « وآخر سورة نزلت قول الله تعالى: «إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت النّاس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربّك واستغفره إنّه كان توّابا » . وفى الصحيح أنّه كان ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه

---

(١) سورة طه ١٣٠
(٢) سورة ق ٣٩ ، ٤٠
(٣) سورة الأعراف ٢٠٥
(٤) سور النور ٣٦ ، ٣٧
(٥) سورة ص ١٧ ، ١٨
(٦) سورة غافر ٥٥
(٧) سورة آل عمران ٤١
(٨) رياض الصالحين ٥٠٩
(٩) الرّسالة التدمرية ص ٧٢

وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك . اللهم اغفر لى . يتأوّل القرآن » .

وإذا تساءلنا عن الحكمة فى اختيار هذين الوقتين بالذّات آخر النّهار وأوّل الليل ، وآخر الليل وأوّل النهار ، أمكن لنا أن نقول إنّه وقت فراغ الإنسان عادة من مشاغل الدّنيا ، وهدوء أعصابه ، وصفاء نفسه ، وإشراق روحه ، واتجاه قلبه إلى الله تعالى . وربما تذكرنا بهذه المناسبة ردّ يعقوب عليه السّلام كما صوره القرآن الكريم حينما طلب أبناؤه منه أن يستغفر يعقوب ربّه جلّ وعلا لهؤلاء الأبناء ذنوبهم وقد تعمّدوا الإساءة إلى يوسف عليه السّلام فاستتبع ذلك لحوق كبير الأذى بيعقوب عليه السّلام وآله . إنّ يعقوب عليه السّلام لا يلبى طلب الأبناء على الفور قال تعالى[1] : **﴿ قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنّا كنّا خاطئين . قال سوف استغفر لكم ربّى إنّه هو الغفور الرّحيم ﴾** إنّ يعقوب عليه السّلام لا يلبى على الفور طلب الإخوة الّذين يودّهم ودّا كبيرا ، ويحبهم حبّا جمّا ، لأنّه على علم بأنّ ثمّة أوقاتا أخرى يكون هو نفسه فيها أقرب إلى الله تعالى . وربما كان ذلك وقت السّحَر . إنّه عليه الصّلاة والسّلام يعدهم خيراً بهذا الجواب : « سوف أستغفر لكم ربّى » وإنّا وراء ذلك نفهم من استعمال لفظة سوف الّتى تدلّ على المستقبل غير القريب ، بخلاف السّين التى تدل على القرب . ولذلك قيل عن سوف إنّها حرف تسويف ، نفهم من استعمال سوف عتاب نفس يعقوب الصّامت لأبنائه الّذين سببوا له من العذاب والشقاء مالا يعلم حقيقته إلاّ الله تعالى . إنّ ذكر الله تعالى ذكراً كثيرا ، وتسبيحه جلّ وعلا فى كلّ الأوقات مطلوب بقوّة ، وبخاصة فى هذين الوقتين اللذين يلتقى عندهما الليل والنّهار ، والنّهار والليل ، بسبب استعداد العبد للإقبال بكلّه على بارئه جلّ وعلا . وقد لاحظنا أنّ آية سورة النّساء الكريمة تأمر المسلمين لله ربّ العالمين المجاهدين فى سبيل الله تعالى بأن يذكروا الله تعالى قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، وفى كلّ الأحوال . ومتى يكون هذا الأمر المؤكّد بذكر الله تعالى ؟ بعد أداء صلاة الخوف التى اهتمّ القرآن الكريم بذكر تفاصيلها ، دليلا على أهمية الصّلاة من ناحية . وعلى علاقة ذكر الله تعالى الوثيقة بإقبال النفس الصّافية المشرقة المطمئنة على بارئها ، وخاصة بعد أداء الصّلوات ، ومنها صلاة الخوف ، ومنها صلاة النفل وبخاصة والنّاس

---

(١) سورة يوسف ٩٧ ، ٩٨

نيام . وقد جاء فى نعت المقبلين عليه جلّ وعلا صلاة وتسبيحا قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ إنما يؤمن بآياتنا الّذين إذا ذكّروا بها خروا سجداً و سبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون. تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفاً وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ﴾ وقوله تعالى[2] : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربّهم إنّهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حقّ للسّائل والمحروم ﴾ وقال تعالى[3] : ﴿ إنّ فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الّذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾.

نماذج من الذّكر

أشار ابن كثير فى تفسيره[4] إلى أنّ من أحسن الكتب المؤلفة فى الذّكر كتاب الأذكار للشيخ محى الدّين النووى رحمه الله تعالى المولود فى المحرّم سنة إحدى وثلاثين وستمائة بنوى من أعمال دمشق[5] والمتوفّى فى ليلة الأربعاء ليلة أربع وعشرين من رجب سنة ست وسبعين وستمائة. والحقيقة أنّ كتاب الأذكار عظيم فى بابه وفى النسخة المطبوعة يقع فى ثلاثمائة واثنتين وثمانين صفحة . ونحن نودّ أن نقتبس نماذج من الذّكر ممّا جاء فى رياض الصّالحين من كلام سيد المرسلين للإمام النّووى نفسه لأن المعلومات فيه فى هذا الباب تكاد تكون زبدة كتاب الأذكار .

قال الله تعالى[6] : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ وقال تعالى[7] : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾. وقال تعالى[8] : ﴿ واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان

---

(١) سورة السجدة ١٥ ، ١٦
(٢) سور الذّاريات ١٥ – ١٩
(٣) سورة آل عمران ١٩٠ ، ١٩١
(٤) تفسير ابن كثير ٣/٤٩٥
(٥) ترجمة المؤلف بين يدى رياض الصّالحين وانظر الأعلام للزركلى
(٦) سورة العنكبوت ٤٥
(٧) سورة البقرة ١٥٢
(٨) سورة الجمعة ١٠

حبيبتان إلى الرّحمن . سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم . متفق عليه[1] وعن أبى أيّوب الأنصارى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : من قال : لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير عشر مرات . كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل متفق عليه[2] . وعن ثوبان رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقال : اللهم أنت السّلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام . قيل للأزواعى ، وهو أحد رواة الحديث : كيف الاستغفار قال يقول : استغفر الله . استغفر الله . رواه مسلم[3] .

وعن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصّلاة قال : لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير . اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجدّ[4] منك الجد . متفق عليه[5] وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : من سبح الله فى دبر كلّ صلاة ثلاثاً وثلاثين وحمد الله ثلاثا وثلاثين وكبرّ الله ثلاثا وثلاثين . وقال تمام المائة : لا إله الله وحده لا شريك له له الملك وله والحمد وهو على كل شيء قدير. غفرت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر رواه مسلم[6] وعن معاذ رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال : يا معاذ . والله إنّى لأحبُّك . فقال : أوصيك يا معاذ لا تدعن فى دبر كل صلاة تقول : اللهم أعنّى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك . رواه أبو داود بإسناد صحيح[7] وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إذا تشهّد أحدكم فليستعذ بالله من أربع . يقول : اللهم إنّى أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدّجال . رواه مسلم[8] وعن على رضى الله عنه قال كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى

---

(١) رياض الصالحين ٤٩٤
(٢) نفسه ص ٤٩٥
(٣) نفسه ٤٩٦
(٤) الجدّ بفتح الجيم الحظ والغنى أى لا ينفع الغنى غناه وإنما ينفعه [illegible] عنايتك وما قدّم من عمل صالح .
(٥) رياض الصالحين ص ٤٩٦
(٦) نفسه ص ٤٩٧
(٧) نفسه ص ٤٩٨
(٨) نفسه ص ٤٩٨

الصّلاة يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : اللهم اغفر لى ما قدّمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت . وما أنت أعلم به منى . أنت المقدّم وأنت المؤخر ، لا إله إلاّ أنت . رواه مسلم[1] وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد . فأكثروا الدّعاء رواه مسلم[2] وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : يقول الله تعالى : أنا عند ظنّ عبدى بى . وأنا معه إذا ذكرنى .فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى . وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته ملأ خير منهم متفق عليه[3] وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : سبق المفرّدون . قالوا : وما المفرّدون يا رسول الله ؟ قال : الذّاكرون الله كثيراً والذّاكرات . رواه مسلم . روى المفردون بتشديد الرّاء وتخفيفها . والمشهور الّذى قاله الجمهور . التشديد[4] وعن عبد الله بن بسر رضى الله عنه أنّ رجلا قال : يا رسول الله : إنّ شرائع الإسلام قد كثرت على فأخبرنى بشىء أتشبث به . قال : لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله . رواه الترمذى . وقال : حديث حسن[5] وعنه (عن أبى هريرة) عن أبى سعيد رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : لا يقعد قوم يذكرون الله إلاّ حفّتهم الملائكة وغشيتهم الرّحمة ونزلت عليهم السّكينة وذكرهم الله فيمن عنده . رواه مسلم[6] وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .. أنّ رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه . فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ، ومنّ به علينا قال : آلله ما أجلسكم إلاّ ذاك ؟ قالوا : آلله ما أجلسنا إلاّ ذاك . قال : أما إنّى لم أستحلفكم تهمة لكم ولكنه أتانى جبريل فأخبرنى أنّ الله يباهى بكم الملائكة رواه مسلم[7] وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ما لقيت من عقرب لذغنى البارحة . قال : أما لو قلت حين

---

(١) نفسه ص ٤٩٩
(٢) نفسه ص ٤٩٩
(٣) نفسه ص ٥٠٢
(٤) نفسه ص ٥٠٢
(٥) نفسه ص ٥٠٣
(٦) نفسه ص ٥٠٧
(٧) نفسه ص ٥٠٨

أمسيت : أعوذ بكلمات الله التّامّات من شر ما خلق لم تَضرّك . رواه مسلم[1] وعن عبد الله بن خبيب بضم الخاء المعجمة رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ : « اقرأ قل هو الله أحد والمعوذتين[2] حين تمسى وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شىء » رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن صحيح[3] وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ما من عبد يقول فى صباح كل يوم ومساء كل ليلة : بسم الله الّذى لا يضرّ مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ، ثلاث مرات ، إلاّ لم يضره شىء رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن صحيح[4] وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إذا أوى أحدكم إلى فراسه فلينفض فراشه بداخلة إزاره[5] فإنّه لا يدرى ما خلفه عليه ثمّ يقول : باسمك ربّى وضعت جنبى وبك أرفعه . إن أمسكت نفسى فارحمها . وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصّالحين . متفق عليه[6] .

وعن عائشة رضى الله عنها أنّ رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه نفث فى يديه وقرأ بالمعوّذات . ومسح بهما جسده . متفق عليه . وفى رواية لهما أنّ النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كلّ ليلة جمع كفيه ثمّ نفث فيهما فقرأ فيهما : قل هو الله أحد . وقل أعوذ بربّ الفلق . وقل أعوذ بربّ الناس . ثمّ مسح بهما ما استطاع من جسده . يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده . يفعل ذلك ثلاث مرات . متفق عليه . قال أهل اللغة : النفث نفخ لطيف بلا ريق[7] وعن البراء بن عازب رضى الله عنهما قال : قال لى رسول الله ﷺ : إذا أتيت مضجعك فتوضّأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل : اللهم أسلمت نفسى إليك . ووجهت وجهى إليك . وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك . رغبة ورهبة

---

(١) نفسه ص ٥٠٩

(٢) المعوّذتان : قل أعوذ بربّ الفلق وقل أعوذ بربّ الناس .

(٣) نفسه ص ٥١١

(٤) نفسه ص ٥١١

(٥) داخلة الإزار طرفه الذى يلى الجسد .

(٦) رياض الصالحين ٥١٢

(٧) نفسه ص ٥١٢

إليك . لا ملجأ ولا منجا منك إلاّ إليك . آمنت بكتابك الّذى أنزلت . وبنبيك الّذى أرسلت . فإن متّ متّ على الفطرة واجعلهن آخر ما تقول . متفق عليه[1] .

يقول القرطبى[2] : « أمر الله تعالى عباده بأن يذكروه ويشكروه ويكثروا من ذلك على ما أنعم به عليهم . وجعل تعالى ذلك دون حدّ لسهولته على العبد . ولعظم الأجر فيه . قال ابن عبّاس : لم يعذر أحد فى ترك ذكر الله إلاّ من غلب على عقله » .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنّ النبى ﷺ قال : من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه . رواه البخارى ومسلم . أى أجزأتاه عن قيام تلك الليلة . وقيل : كفتاه ما يكون من الآفات تلك الليلة[3] وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ فشق ذلك عليه . قالوا : أيّنا يطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : الله الواحد الصمد ثلث القرآن . رواه البخارى ومسلم والنّسائى[4] وقد بين ابن تيمية ، فى رسالة الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر[5] السر فى كون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن يقول : لتضمنها الثلث الذى هو التّوحيد . لأنّ القرآن توحيد وأمر وقصص . إنّ المؤمنين والمؤمنات مأمورون بأن يذكروا الله تعالى ذكراً كثيراً ويسبحوه بكرة وأصيلا ، أى ينزهوه جلّ وعلا . وإنّ سورة الإخلاص تحقق ذلك التنزيه الذى يمثل أحد الأهداف الثلاثة الكبرى للقرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ **يا أيُّها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسبحوه بكرة وأصيلا** ﴾ .

وهذه هى الآية الكريمة الثّالثة فى القسم . قال تعالى : ﴿ **هو الّذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما** ﴾ هذا تهييج إلى الذّكر . أى أنّه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم كقوله عزّ وجل[6] : ﴿ **كما أرسلنا فيكم**

---

(١) نفسه ٥١٣

(٢) تفسير القرطبى ص ٥٢٧٩

(٣) فقة السنة ٤٩٣/١

(٤) فقه السنة ٤٩٤/١

(٥) ص ٩

(٦) سورة البقرة ١٥١ ، ١٥٢

رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون . فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾[1] وفى نزول الآية الكريمة أخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : لمّا نزلت : إنّ الله وملائكته يصلون على النبى . قال أبو بكر : يا رسول الله : ما أنزل الله عليك خيراً إلاّ أشركنا فيه فنزلت : هو الّذى يصلى عليكم وملائكته[2] وقال ابن عباس : لما نزل : إنّ الله وملائكته يصلون على النبى . قال المهاجرون والأنصار : هذا لك يا رسول الله خاصة . وليس لنا فيه شيء فأنزل الله هذه الآية[3] لننظر إلى فضل الله تعالى العظيم على المؤمنين والمؤمنات . إنّ الله جلّ وعلا وملائكته الكرام ، يصلون على النبى ﷺ . ويشاء فضله جلّ وعلا وكرمه أن يصلوا على المؤمنين والمؤمنات ، الذين عرفنا من السورة الكريمةالعديد من صفاتهم ، التى تجمعها لفظة الإيمان . إنّ هذا الفضل من الله تعالى والإحسان ، ينبغى أن يقابله من المؤمنين المتقين الكثير من الأعمال الصالحة ، وعلى رأسها أن يذكروا الله تعالى ذكراً كثيراً ويسبحوه جلّ وعلا بكرة وأصيلا . وقد عرفنا شيئاً من قيمة الذّكر الرّفيعة العالية وشيئاً من أحواله ، كما بينتها آيات الذّكر الحكيم وأحاديث المصطفى ﷺ ؟

فما معنى الصّلاة من الله تعالى على المؤمنين ؟ الصّلاة من الله تعالى الرّحمة[4] والذى يؤيد ذلك التذييل الّذى نصَّ فيه على رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ وقيل : الثناء على العبد عند الملائكة،يقول ابن كثير مثلاً[5] : « والصّلاة من الله تعالى ثناؤه على العبد عند الملائكة . حكاه البخارى ... وقال غيره : الصّلاة من الله عز وجل الرّحمة . وقد يقال : لا منافاة بين القولين والله أعلم » .

وما معنى الصّلاة من الملائكة ؟ معنى الصّلاة من الملائكة الدّعاء للناس

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٩٥/٣

(٢) لباب النقول ١٧٥ وانظر الكشاف ٥٤٢/٢

(٣) تفسير القرطبى ص ٥٢٨٠

(٤) لسان العرب « صلا » وتفسير القرطبى ص ٥٢٨٠ وتفسير ابن كثير ٤٩٥/٣ وانظر تفسير الطبرى ١٣/٢٢ والبحر المحيط ٢٣٧/٧ والكشاف ٥٤٢/٢ .

(٥) تفسير ابن كثير ٤٩٥/٣ والشفا للقاضى عياض ٤٨/١

والاستغفار[1] كقوله تبارك وتعالى[2] : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربّنا وسعت كلّ شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربّنا وأدْخلهم جنّات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم إنّك أنت العزيز الحكيم . وقهم السّيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ وكقوله تبارك وتعالى[3] : ﴿ **تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض . ألا إنّ الله هو الغفور الرّحيم** ﴾ .

وإنما كانت الرّحمة من الله تعالى لعباده المؤمنين والاستغفار من الملائكة للمؤمنين بإرادة الله تعالى وأمره ، من أجل أن يخرج المؤمنون والمؤمنات من الظلمات إلى النور . وهكذا يتبين أنّه رغم كون صلاته جلّ وعلا غير صلاة الملائكة ، فإنّ غايتهما واحدة ، هى إخراج المؤمنين والمؤمنات من الظلمات إلى النور . وإذا كنا نفهم أنّ المؤمنين والمؤمنات بفضل الله تعالى قد خرجوا أساساً من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإسلام والإيمان ، فيكون معنى الإخراج استمرار الإخراج ، لأنّ العبد فى الحقيقة لا حول له ولا قوة . وإذا كان المصطفى ﷺ يسأل الله تعالى من أعماقه ألا يكله إلى نفسه طرفة عين ، فكيف بغيره ﷺ ، وهو أشرف الخلق . إنّ حاجة البشر ملحة لإخراجهم من الظلمات إلى النور واستمرار إخراجهم . وقد فسّر الإخراج من الظلمات إلى النور بالإخراج من الضلالة إلى الهدى[4] ومن الكفر إلى الإسلام[5] ومن المعصية إلى الطاعة[6] ومن ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين[7] وقد قال تعالى[8] : ﴿ **الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور . والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات .**

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٩٦/٣ واللسان « صلا » والشفا ٤٨/١

(٢) سورة غافر ٧ - ٩

(٣) سورة الشورى ٥

(٤) تفسير الطبرى ١٣/٢٢ وتفسير القرطبى ص ٥٢٨١

(٥) تفسير الطبرى ١٣/٢٢

(٦) البحر المحيط ٢٣٧/٧ والكشّاف ٥٤٢/٢

(٧) تفسير ابن كثير ٤٩٦/٣

(٨) سورة البقرة ٢٥٧

أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾. يقول القرطبى بشأن قوله تعالى : « ليخرجكم من الظلمات إلى النور »[1] : « ومعنى هذا التثبيت على الهداية لأنّهم كانو فى وقت الخطاب على الهداية » .

ويعتبر التذييل كما قلنا قوّة لمعنى الرحمة المفهوم من صلاته جلّ وعلا على عباده المؤمنين ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ والمعروف أنّ كان ينسحب على كل الأزمنة . وقد خص المؤمنين بالذكر لأنهم هم الذين تتجسد فيهم كلّ النعوت التى ينبغى أن يتحلى بها عباد الله تعالى . وإنّ رحمة الله تعالى بهؤلاء المؤمنين تشملهم فى الدّنيا وفى الآخرة . وقد قال تعالى[2] : ﴿ **ورحتمى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزّكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرّسول النبى الأمى** ﴾ وقال تعالى[3] ﴿ **كتب على نفسه الرّحمة** ﴾ وإنّ من أهمّ مظاهر رحمته جلّ وعلا بعباده صلاته عليهم جلّ وعلا وملائكته عليهم السّلام . « وأما رحمته بهم فى الآخرة فآمنهم من الفزع الأكبر . وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار . وما ذاك إلاّ لمحبته لهم ورأفته بهم[4] قال تعالى[5] : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنّة بما كنتم تعملون** ﴾ وقال تعالى[6] : ﴿ **أفمن يعلم أنّما أنزل إليك من ربّك الحق كمن هو أعمى إنّما يتذكر أولو الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربّهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربّهم وأقاموا الصّلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدّار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدّار** ﴾.

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٨١

(٢) سورة الأعراف ١٥٦ ، ١٥٧

(٣) سورة الأنعام ١٢

(٤)تفسير ابن كثير ٤٩٦/٣

(٥) سورة النحل ٣٢

(٦) سورة الرعد ١٩ - ٢٤

« فى صحيح الإمام البخارى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبى قد أخذت صبيا لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته . فقال ﷺ : أترون هذه تلقى ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك ؟ قالوا لا . قال ﷺ : فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها »[1] عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : جعل الله الرّحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً . وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً . فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق ، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه[2] .

وانظر ما يقول ابن تيمية فى كتاب الإيمان[3] فى هذا الشأن : « إنّ الله جعل اسم المؤمن اسم ثناء وتزكية ومِدْحة . أوجب عليه الجنة فقال : وكان بالمؤمنين رحيما . تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعدّ لهم أجراً كريما . وقال : وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً . وقال : وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم[4] وقال : يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم[5] وقال : الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور[6] وقال : وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار[7] إلى أن قال : « ولم نجده أوجب الجنة باسم الإسلام »[8] قال تعالى : ﴿ **هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمني رحيما** ﴾ وهذه هى الآية الكريمة التالية . قال تعالى :﴿ **تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعدّ لهم أجراً كريما** ﴾ . إنّ حديث الآية الكريمة لا يزال عن المؤمنين الذين تلازمهم رحمة الله تعالى البر الرحيم . لقد عرفنا أن رحمة الله تعالى للمؤمنين تشملهم فى الدّنيا والآخرة ، وهذه الرّحمة والإكرام يشملانهم يوم القيامة ، حينما يدخلون الجنة ويلقون فيها تحية وسلاما . إنّ الضمير

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٩٦/٣ وصحيح البخارى ٩/٨
(٢) صحيح البخارى ٨ / ٩
(٣) ص ٣٠٣
(٤) سورة يونس ٢
(٥) سورة الحديد ١٢
(٦) سورة البقرة ٢٢٧
(٧) سورة البقرة ٢٥
(٨) الإيمان ص ٣٠٤

من القول : « تحيّتهم » يعود إلى المؤمنين . وإنّ الضمير من القول : « يوم يلقونه » يعود إلى الذّات العلية . وواضح أنّنا بصدد لفظين قريبى المعنى : التحية والسلام وقد فرق المبرد بين التحية والسّلام فقال : التحية يكون ذلك دعاء . والسّلام مخصوص . ومنه : ويلقون فيها تحية وسلاما[1] وقد جاء فى القاموس[2] بشأن التحية :«والتحية السّلام . وحياه تحية . والبقاء والملك . وحياك الله أبقاك أو ملكك«وكأنّ الدّعاء لهؤلاء المؤمنين يوم يلقون الله جلّ وعلا بالبقاء ، يقترن به أهمّ متمماته وهو الأمن والطمأنينة والسكينة والسلام .

وإنّ السّؤال الذى يطرح ههنا هو من الذى يحى المؤمنين ؟ أهو ربّ العزّة أم الملائكة أم المؤمنون أم أنّ السّياق يمكن أن يشمل كل أنواع التحيات . الحقيقة أنّ كل ذلك ممكن . فيمكن أن تكون التحية من الله تعالى . وقد جاء فى سورة يس ما يفيد أن السلام على المؤمنين فى الجنة يكون من ربّ العالمين . وإنّ السلام من جنس التحية . قال تعالى[3] :﴿ **سلام قولا من ربّ رحيم** ﴾ ويمكن أن يكون ذلك من الملائكة . ومن الأدلّة على ذلك قوله تعالى[4] :﴿ **وسيق الّذين اتقوا ربّهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾ وقوله تعالى[5] : ﴿ **والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ وقوله تعالى[6] : ﴿ **الّذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ ويمكن أن يكون ذلك من المؤمنين أنفسهم إذ يحيى بعضهم بعضا فى الجنة . ومن الأدّلة على ذلك قوله تعالى[7] :﴿ **إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربّهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام . وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين** ﴾ والمراد بالأجر العظيم الجنة[8] وكما جاء فى

---

(١) البحر المحيط ٢٣٨/٧

(٢) « حيا »

(٣) سورة يس ٥٨

(٤) سورة الزمر ٧٣

(٥) سورة الرّعد ٢٣ ، ٢٤

(٦) سورة النحل ٣٢

(٧) سورة يونس ٩ ، ١٠

(٨) تفسير ابن كثير ٤٩٦/٣ وتفسير الطبرى ١٤/٢٢ والبحر المحيط ٢٣٨/٧ والكشاف ٥٤٢/٢

الحديث النبوى الشريف فى الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . قال تعالى : ﴿ تحيّتهم يوم يلقونه سلام وأعدّ لهم أجراً كريما ﴾ .

والآيتان الكريمتان بعد ذلك متلازمتان باعتبارهما تخلعان على المصطفى ﷺ ستا من الصفات أو الأسماء . قال تعالى : ﴿ يا أيُّها النبى إنّا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ﴾ فالنبى ﷺ هو الشّاهد والمبشر والنذير والدّاعى والسراج والمنير . يقول القرطبى[1] : وهذه الآية تضمنت من أسمائه ﷺ ستة أسماء . ولنبينا ﷺ أسماء كثيرة وسمات جليلة ، ورد ذكرها فى الكتاب والسنة والكتب المتقدمة . وقد سماه الله فى كتابه محمداً وأحمد . وقال ﷺ فيما روى عنه الثقات العدول إلى خمسة أسماء . أنا محمّد وأحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر . وأنا الحاشر الذى يحشر النّاس على قدمى وأنا العاقب . وفى صحيح مسلم من حديث جبير بن مطعم : وقد سماه الله رءوفا رحيما[2] وفيه أيضاً عن أبى موسى الأشعرى قال : كان رسول الله ﷺ يسمى لنا نفسه أسماء فيقول : أنا محمّد وأحمد والمقفّى والحاشر ونبى التوبة ونبى الرحمة .

جاء فى صحيح البخارى بشأن الآية الكريمة الأولى وما تضمنته من نعوت له ﷺ موافقة لما جاء فى التوراة[3] : حدّثنا محمّد بن سنان حدّثنا فُلَيْح حدّثنا هلال عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة . قال : أجل . والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : يا أيُّها النبى إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٨٢

(٢) انظر هنا الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض ١٥/١ و ١٢٢ وانظر ص ٢٢٩ بشأن الاسمين أحمد ومحمّد من كونهما صيغتى مبالغة من صفة الحمد وكثرة الحمد . فهو ﷺ أجل من حمد بالبناء للفاعل . وأفضل من حمد بالبناء للمفعول . والله جلّ اسمه حمى أن يسمى بهما أحد قبل زمانه . وبأنه طه ويس الصفحات ٣٢ ، ٣٣ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٢٣١ وبشأن أسمائه ﷺ السبعة فى القرآن الكريم ص ٢٣٣ وبشأن ألقابه كالنور والسراج المنير والمنذر ص ٢٣٣ و ص ٢٣٦ بشأن أسمائه ﷺ من القرآن الكريم والحديث الشريف والكتب السماوية وقد بلغت نحو ثلاثين اسما . وانظر الرّسالة التدمرية ص ٣٥ فمن أسمائه ﷺ هنالك محمّد وأحمد والماحى والحاشر والعاقب .

(٣) صحيح البخارى كتاب البيوع ٨٧/٣

ونذيراً . وحرْزا للأميين . أنت عبدى ورسولى . سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب[1] فى الأسواق . ولا يدفع بالسيئة السيئة . ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملّة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلاّ الله ويفتح بها أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا »[2] .

« وعن ابن عباس قال . لما نزلت : يا أيُّها النبى إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا . دعا رسول الله ﷺ عليا ومعاذاً فقال : انطلقا فبشرا ولا تُعَسّرا ، فإنّه قد نزل علىّ الليلة آية : يا أيُّها النبى إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً »[3] .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تخاطبه ﷺ فى الطريق التى خصه الله تعالى بها فى الخطاب : « **يا أيُّها النبى** » وقد جمعت الآية الكريمة بين النبوة والرّسالة وذلك فى القول : « **يا أيُّها النبى إنّا أرسلناك** » وبذلك هى تجمع بين النبوة وبين الرّسالة التى تعلو عليها . وبذلك تعمق الآية الكريمة المعنى الّذى جاء فى الآية الكريمة الأربعين . قال تعالى : ﴿ **ما كان محمّد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾.

والآية الكريمة وراء ذلك تضيف ثلاثة من صفاته ﷺ : ﴿ **يا أيّها النبى إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً** ﴾ فما معنى القول : شاهدا ؟ عن قتادة : شاهدا على أمته بالتبليغ إليهم ، وعلى سائر الأمم بتليغ أنبيائهم ونحو ذلك[4] وإنّ الإشارات لكثيرة فى القرآن الكريم على كون المصطفى الشاهد على أمته بكونه عليه الصّلاة والسلام قد بلغ الرّسالة وأدّى الأمانة وكان لقومه الناصح الأمين . ومن ذلك قوله تعالى فى سورة النساء[5] : ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا . يومئذ يودّ الذين كفروا وعصوا الرّسول لو تسوى بهم الأرض**

---

(١) السخاب هو الصخاب من السخب والصخب

(٢) غُلْف كلّ شىء فى غلاف سيف أغلف . وقوس غلفاء ورجل أغلف إذا لم يكن مختونا صحيح البخارى ٨٧/٣ والحديث طويل فى تفسير ابن كثير ٤٩٧/٣

(٣) تفسير القرطبى ص ٥٢٨٣ وانظر ص ٥٢٨٢ وتفسير ابن كثير ٤٩٧/٣

(٤) تفسير القرطبى ص ٥٢٨٢

(٥) الآيات ٤١ ، ٤٢

ولا يكتمون الله حديثا ﴾وقوله تعالى فى سورة النحل[1] :﴿ ويوم نبعث من كل أمّة شهيداً ثمّ لا يؤذن للذين كفروا ولاهم يستعتبون﴾ وقال تعالى[2] :﴿ ويوم نبعث فى كل أمّة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ وقال تعالى فى سورة الحج[3] :﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدّين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرّسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزّكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾ وقد جاء بشأن شهادته ﷺ على أمته فى سورة النساء أحاديث متواترة ، وقد جمع بينها ابن كثير فى تفسيره . يقول رحمه الله تعالى[4] : وقال البخارى[5] : حدّثنا محمّد بن يوسف حدّثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ اقرأ علىّ . فقلت : يا رسول الله : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال نعم ، إنّى أحبّ أن أسمعه من غيرى . فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : فكيف إذا جئنا من كلّ أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً . فقال : حسبك الآن . فإذا عيناه تذرفان . ورواه هو ومسلم أيضاً من حديث الأعمش به وقد روى من طرق متعددة عن ابن مسعود . فهو مقطوع به عنه . ورواه أحمد من طريق أبى حيّان ، وأبى رزين عنه ، وقال ابن أبى حاتم : ... حدّثنا يونس بن محمّد بن فضالة الأنصارى عن أبيه قال : وكان أبى ممن صحب النبى ﷺ أنّ النبى ﷺ أتاهم فى بنى ظفر فجلس على الصخرة التى فى بنى ظفر اليوم ومعه ابن مسعود ومعاذ بن جبل وناس من أصحابه . فأمر النبى ﷺ قارئا فقرأ حتى أتى على هذه الآية : **فيكف إذا جئنا من كلّ أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** . فبكى رسول الله ﷺ حتّى ضرب بلحيته وجنبيه فقال : ياربّ . هذا شهدت على من أنابين

---

(١) الآية ٨٤

(٢) سورة النحل ٨٩

(٣) الآية ٧٨

(٤) تفسير ابن كثير ٤٩٨/١

(٥) انظر صحيح البخارى ٥٧/٦

أظهرهم ، فكيف بمن لم أره . وقال ابن جرير .. عن عبد الله هو ابن مسعود فى هذه الآية . قال : قال رسول الله ﷺ : شهيد عليهم مادمت فيهم . فإذا توفيتنى كنت أنت الرّقيب عليهم ».

فإذا تحوّلنا إلى الصّفة التّالية له ﷺ « ومبشرا » استطعنا أن نتبين للوهلة الأولى أنّها تقابل الصّفة الثّالثة : « ونذيرا » وهنا يظهر سؤال مهم وهو : لماذا قدمت البشارة على الإنذار فقيل « ومبشرا ونذيرا » ولم يتقدم الإنذار على البشارة فقيل : ومنذراً وبشيرا مع العلم بأنّ الإنذار قد تقدم على التبشير فى العديد من المواضع فى القرآن الكريم . فهذه سورة الفرقان مثلاً ، تبدأ بالإشارة إلى الإنذار مكتفية بها . قال تعالى : ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾ وتظلّ الآيات الكريمات بعد ذلك تسير وفق هذا الإنذار حتى يحدث منعطف واضح فى السّورة الكريمة قرب آياتها الأخيرة التى تخلص لثمرة منهج التربية القرآنية عباد الرّحمن . وقد تجلّى هذا المنعطف الواضح فى الآية الكريمة السّادسة والخمسين ، التى تمّ فيها الجمع بين البشارة والإنذار مع تقديم البشارة . قال تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلاّ مبشراً ونذيراً** ﴾ وهذه هى سورة الأعراف يجىء فى آية كريمة قوله تعالى[1] ﴿ **أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلاّ نذير مبين** ﴾ بينما يجىء فى آية كريمة بعد ذلك قوله تعالى[2] ﴿ **قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلاّ ما شاء الله.ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السّوء.إن إنّا إلاّ نذير وبشير لقوم يؤمنون** ﴾ ويلاحظ أنّ الإشارة إلى الإنذار قد تقدمت على عكس آية سورة الفرقان . وقد جاء تقديم النذير فى قوله تعالى من سورة هود[3] : ﴿ **ألاّ تعبدوا إلاّ الله إننى لكم منه نذير وبشير** ﴾ بينما جاء تقديم البشير فى قوله تعالى من سورة المائدة[4] : ﴿ **يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرُّسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شىء قدير** ﴾ .

فما معنى المبشر والنذير فى آية سورة الأحزاب ولما تقدمت البشارة على الإنذار ؟

---

(١) سورة الأعراف ١٨٤
(٢) سورة الأعراف ١٨٨
(٣) الآية ٢
(٤) الآية ١٩

أمّا المبشر فهو الذّى يبشر المؤمنين المتقين المجاهدين فى سبيل الله تعالى حقّ الجهاد بأنّ لهم الجنة التى فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وأمّا النذير فهو الذى ينذر الكفار أوّلاً والمذنبين من المسلمين ثانياً . يقول ابن كثير[1] : وقوله عز وجل : ومبشراً ونذيرا . أى بشيرا للمؤمنين بجزيل الثواب . ونذيراًللكافرين من ويل العقاب ويقول الطبرى[2] : « يقول تعالى ذكره لنبيه محمّد ﷺ يا محمّد إنّا أرسلناك شاهداً على أمتك بإبلاغك إيّاهم ما أرسلناك به من الرّسالة ومبشرهم بالجنة إن صدقوك وعملوا بما جئتهم به من عند ربّك . ونذيراً من النار أن يدخلوها فيعذبوا بها إن هم كذّبوك وخالفوا ما جئتهم به من عند الله » .

أما لماذا تقدّمت البشارة على الإنذار ، فلأن الجوّ يعبق بشذا الرّحمة والمحبّة والحنان . فلهذا تقدّمت البشارة . وبما أن المصطفى ﷺ مبشر ونذير فى آن واحد . وبما أنّ البشارة تستدعى الإنذار بتداعى الأضداد ، لذلك تمّ الجمع بين البشارة والإنذار مع تقديم البشارة . قال تعالى :﴿ **يا أيّها النبى إنّا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيراً** ﴾ ونحن حينما نتدبر هذه الصفات الثلاث نتبين أنّ الصّفة الأولى الشهادة تقتضى أن يذكر بعدها البشارة والإنذار ، لأنّ الشهادة ، وهى الصّفة الأولى ستكون فى حق كلّ الذين بلغتهم دعوة المصطفى ﷺ . وهؤلاء ينقسمون فريقين . فريق آمن ، وهؤلاء هم الّذين تخصهم البشارة . وفريق لم يؤمن وهؤلاء هم الّذين يخصهم الإنذار . ومن أوضح الأدلّة على أنّ الرّحمة والمحبة والحنان والبشر والسعد والحبور ، هى المعانى التى تسيطر على الأجواء وتعطرها . أنّ الآية الكريمة بعد التّالية ، تعود إلى ذكر البشارة معمقة لمعانيها ومراميها ، وذلك فى القول خطابا له ﷺ : وبشر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلا كبيراًوبما أن هذه الآية الكريمة قد ربطت بين المؤمنين والبشارة وذلك معناه الرّبط بين الإنذار والكافرين فى المقام الأوّل .

وإنّ ربّ العزّة إنّما بعث محمّداً ﷺ شاهدا على أمته . وهو ﷺ إنّما يدلى بهذه الشهادة يوم القيامة . وتقتصر وظيفته فى هذه الحياة الدّنيا على الإبلاغ وقد قال تعالى[3] : ﴿ **فإنّما عليك البلاغ وعلينا الحساب** ﴾ وإن البلاغ بطبعه إنّما يكون فى

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٩٧/٣

(٢) تفسير الطبرى ١٤/٢٢

(٣) سورة الرعد ٤٠

هيئة الإنذار والتبشير . ومع أنّ طبيعة التبليغ تقتضى الابتداء بالإنذار باعتبار المصطفى ﷺ أوّل المسلمين لله ربّ العالمين والمؤمنين . فإنّ جوّ الودّ والحنان المسيطر على الأجواء اقتضى تقديم البشارة على الإنذار .

وإذا كنا تبينا رباطا وثيقا يربط بين هذه الآية الكريمة : ﴿ **يا أيُّها النبى إنّا أرسلناك شاهداً ومبشرا ونذيرا** ﴾ وبين قوله تعالى فى السّورة : ﴿ **ما كان محمّد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما** ﴾ فإنّا نتبين وراء ذلك رباطا وثيقا بين الآية الكريمة التالية ، قال تعالى : ﴿ **وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا** ﴾ وبين آية الأسوة الحسنة فى حقّه ﷺ . قال تعالى[1] : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾.

إنّ القول فى الآية الكريمة :وداعيا إلى الله بإذنه ، يبين بعض أعباء الرّسالة وأبعادها . إنّ من متعلقات الرّسالة البلاغ . وإن من متعلقاتها كذلك الدّعوة . ومعروف أنّ الدّعوة تعنى البلاغ ، أى إبلاغ الرّسالة . وأنّ البلاغ يعنى الدعوة . وقد تكون أوسع مدلولاً لاشتمالها على كلّ الوسائل التى يلجأ إليها الدّاعى إلى الله تعالى ، والتى أشاره إليها قوله تعالى[2] : ﴿ **ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة . وجادلهم بالتى هى أحسن . إنّ ربّك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ ويرتبط بالدّعوة الدّعوة الصّريحة والإفصاح الواضح البين الجلى للمدعو بضرورة التحوّل بإذن الله تعالى إلى الصراط المستقيم . صراط الذين أنعم الله تعالى علهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . إن البلاغ يشمل هذه المعانى . و إنّ الدّعوة تشمل هذه المعانى كذلك وإنما أردنا أن نبين مدلول كل من اللفظين مباشرة أو بطريق الالتزام .

ونحن إذا نظرنا وراء ذلك إلى الآية الكريمة : ﴿ **وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيراً** ﴾ فى ضوء الآية الكريمة السّابقة ، استطعنا أن نتبين وراء المعانى المتعددة المتنوعة التى تفهم من لفظة الدّعوة . أن ثمّة نوعا من الاتجاه نحو الخصوص فى الآية

---

(١) سورة الأحزاب ٢١

(٢) سورة النحل ١٢٥

الكريمة . ويبدو ذلك بالإشارة إلى العموم فى الآية الكريمة السّابقة . إنّ الرّسالة عامّة ، وإنّ الشهادة عامة . وإنّ البشارة عامة للمؤمنين . وإنّ الإنذار عام للكافرين . فإذا تحوّلنا إلى هذه الآية الكريمة التّالية : ﴿ **وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا** ﴾ تبينا الاتجاه المستمر نحو الخصوص بشأن المؤمنين الذين من حظهم التبشير والكافرين الّذين من حظهم الإنذار . إنّ الدّعوة إلى الله تعالى بإذنه تشمل كل العباد الذين من حظهم التبشير والذين من حظهم الإنذار . ومع ذلك فنحن نحس من إطلاق الدّعوة إلى الله ، ومن الرّبط بين الدّعوة إلى الله تعالى وبين الإذن منه جلّ وعلا . بأنّ ميدان هذه الدّعوة واسع إلى أبعد الدّرجات . وهو بالإضافة إلى ولوجه كل ميدان . يغوص إلى أعمق أعماقه . لقد عرفنا من إرسال النبى ﷺ أنّه مأذون له بالدّعوة إلى الله تعالى ، لأن من شروط الرّسالة إبلاغها . ولا يكون ذلك إلاّ بإذن . وحينما يردف الإرسال بالدعوة إلى الله تعالى ويصرح بلفظ الإذن فى حق الدّعوة المفهوم ضمنا من قبل فى حقّ الرسالة يصحّ أن يفهم من ذلك معان أخر . فنحن نحس أنّ الدعوة إلى الله بإذنه ، التى تحتاج إلى طلب العون الدائم منه جل وعلا ، رغم ابتدائها الطبيعى بغير المسلمين لله ربّ العالمين . فإنّ لها فى الوقت ذاته ميدانا آخر واسعا وفسيحا ، هو ميدان المسلمين لله ربّ العالمين أنفسهم ، لأن هذه الدّعوة يجب أن تلازمهم منذ نعومة أظفارهم ، إلى أن يغادروا هذه الحياة الدّنيا . وإن لنا فى المصطفى ﷺ لأسوة حسنة . فها هو ذا يبعث معاذ بن جبل إلى اليمن ، ويطلب منه أن يتدرج فى دعوة النّاس إلى صراط العزيز الحميد ، ابتداءً بالشهادتين . وإنّ ميدان الدّعوة الواسع ، واقتران الإذن من الله تعالى بالدّعوة إليه جل وعلا فى قوله تعالى : ﴿ **وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا** ﴾ بجعلنا نفهم لفظة الإذن بمعناها الواسع . إن معناها يتجاوز مطلق الإذن المفهوم من الإرسال نفسه إلى كونه يعنى العون المستمر من الله تعالى والتأييد والتوجيه والإرشاد والتسديد . وما الذى يمكن أن يكون نتيجة لكل تلك الميزات التى اصطفى الله تعالى بها حبيبه المصطفى ﷺ ، وهو يدعو من جانبه عباد الله تعالى ، ويهدى إلى الصراط المستقيم ، صراط الله الذى له ملك السماوات والأرض . الذى ينتظر أن يكون نتيجة لكل تلك الميزات هو أن المصطفى ﷺ سيتحقق فى شخصه الكريم وفى سيرته العطرة وسننه المطهرة ، ما أشار إليه قوله تعالى فى هذه السورة الكريمة : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول**

الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكرا الله كثيراً ﴾ إنّ عباد الله تعالى يهتدون بهديه ويستضيئون بنوره ، وهنا نلاحظ أنّه ﷺ ، إذا كان هو الدّاعى إلى الله تعالى بإذنه أوّل الأمر ، فإنّ تأييد الله تعالى المطلق له والذى يتمثل بدرجة أقوى فى القرآن الكريم الذى نزل منجما لتثبيت فؤاده ﷺ ، وفى هيئة السنة المطهرة التى تعتبر تبيينا للقرآن الكريم : قد جعل هذا الرسول الكريم نوراً يهتدى به الحائرون الضالون فى حنادس ليل الشرك المظلم ، ويستضىء به المسلمون لله ربّ العالمين . وبما أنّ النصيب الذى يمكن أن يناله كل فرد ، إنّما يكون بعد عون الله تعالى وفق طاقة هذا المستفيد على أن يفيد وتحمل المسئوليات فإنا نقول بهذه المناسبة : لكل مجتهد نصيب . لا ليس ذلك فحسب . إنّ القرآن الكريم ، من مظاهر تكريم المصطفى ﷺ يرفعه عن مستوى القمر مثلا الّذى يتلقى ضياء الشمس ويعكسه نورا ، إلى مستوى الشمس نفسها،إن ربّ العزة قد شاء فضله العظيم على المصطفى أن يكون أقوى مصدر أرضى لنور الهداية الّذى ينبغى أن يستفيد منه الناس بأن يكون لديهم القوة المبصرة لإدراك ضياء الشمس فنور القمر . إنّ ربّ العزة خالق الشمس والقمر جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، لأنّ الشمس مصدر الإشعاع ولأن القمر يستمدّ نوره من ضوء الشمس . وقد قال تعالى فى سورة يونس[1] : **﴿ هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلاّ بالحق . يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾** وقال تعالى فى سورة نوح[2] : **﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ﴾** وقال تعالى فى سورة الفرقان[3] : **﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمراً منير ﴾** وقال تعالى فى سورة النبأ[4] : **﴿ وجعلنا سراجا وهاجا ﴾** .

إنّ الضياء هو الّذى يصدر من السّراج منبعه ، وذلك هو حال الشمس وضيائها . وإنّ النور هو ذلك الضياء الحال بواسطة هى بمثابة المرآة المنعكس عليها

---

(١) الآية ٥
(٢) الآية ١٥ ، ١٦
(٣) الآية ٦١
(٤) الآية ١٣